الكتاب الثالث

الفصل الأول

كيف توجه السيد خوان إنريكيث وبصحبته عدد من الموريسكيين البارزين إلى البلاط لوقف تنفيذ المرسوم

اتفق الموريسكيون فى تلك الأثناء على التوجه إلى العاصمة لمعالجة هذا الأمر، وذلك على الرغم مما أخبرهم به السيد بدرو دى ديثا رئيس المحكمة. لمّا كان من المناسب أن يتوجه إمرؤ ذو مكانة من أجل أمرٍ بهذا القدر من الأهمية، حتى يمنحه أصحاب الجلالة شرف المقابلة، ألحوا فى الطلب على السيد خوان إنريكيث - Juan Enríquez سيد بسطة – الذى أضحى فيما بعد رئيسًا لخدم مولاتنا الملكة، ليقبل الاضطلاع بتلك المهمة باسم المملكة؛ بوصفه رجلاً يدرك جيداً مدى أهمية عدم تنفيذ المرسوم لاستقرار وهدوء أهل المملكة. وقد حاول الاعتذار، لعلمه أن رئيس المحكمة يعوق ذهاب أى شخص إلى صاحب الجلالة، ليتحدث فى أمر تلك القضية، بكل السبل الممكنة. هذا و قد نصحه أخوه السيد إنريكى إنريكيث Enrique Enrquez، الذى يملك مناطق سيادة مأهولة بالموريسكيين، ألا يتخلى تحت أى ظرف من الظروف عن القيام بما أوكِلَ إليه، وذلك لدرايته بنفوس الموريسكيين، وإدراكه مدى الوقع السيئ الذى ستخلفه تلك الاضطهادات، والمتاعب التى يمكن أن تسفر عنها[1].

(١) كانت مساندة النبلاء للموريسكيين مبعثها – كذلك – مصلحتهم الخاصة، فالموريسكيون كانوا يمثلون عصب الاقتصاد بالنسبة لأصحاب الأراضى، وكان رحيلهم عن إسبانيا معناه تعرض ذلك الاقتصاد للانهيار. (المراجع).

فى نهاية المطاف قصد الرجل البلاط، دون أن يخبر الرئيس بذهابه، واصطحب معه موريسكيين حسنى الإدراك يدعيان: خوان إيرنانديث مفضَّل Juan Hernández Mofadal – وهو من أهالى غرناطة – وإيرناندو دى حبقى Hernando de Abaquí المأمور القضائى بالكُوديا – وهو المكان المختص بالقضاء فى مدينة وادى آش – وله نفوذ فى المملكة. ولكن عندما وصلوا كان الرئيس قد كتب إلى كل من صاحب الجلالة والكاردينال دييغو دى إسبينوسا، يخبرهما كيف أن اضطلاع السيد خوان إنريكيث بالوقوف إلى جانب الموريسكيين فى تلك المسألة، قاد هؤلاء إلى إزعاجه وكذا التسبب فى إثارة القلاقل، بعد أن كانوا قد قطعوا شوطًا كبيرًا فى تنفيذ المرسوم. حينما تمت إفادة السيد خوان إنريكيث بما كتبه الرئيس، قام ذاك برفع خبر المهمة التى جاء من أجلها والأسباب التى قادته إلى القيام بها إلى السيد أنطونيو دى توليدو، رئيس دير القديس خوان، لكى يستعلم من صاحب الجلالة إذا ما كان يجديه إطلاعه بذاك الشأن.

فلما أُذِنَ له بالمقابلة أخبر صاحب الجلالة، بالنيابة عن المملكة، كيف أُشهِرَ المرسوم وأُمِرَ بتنفيذه، مما شكل كارثةً بالنسبة للموريسكيين الذين لا يتصورون كيفية إنفاذ ما ورد فيه. وقد تضرع إلى جلالته أن يضع فى اعتباره كيف أمر والده – الامبراطور المسيحى التقى – بوقف تنفيذه فى آونةٍ كانت الظروف فيها أكثر موائمةً للتنفيذ؛ ونظرًا لكون الأضرار متعددة وشديدة الضخامة، فإنه حرى بجلالته أن يتريث كثيرًا ويمعن النظر فى الأمر. وهو بوصفه واحدًا من أفراد الرعية الأوفياء، فقد حمل على عاتقه تلك المسألة، حينما أدرك أن إيقاف المرسوم مفيد لخدمة المملكة. على الأقل فيما يتعلق بالملابس واللغة، وهما الأمران اللذان يُشعران المتنصرين الجدد ببالغ الأسى.

بعد أن أتم حديثه، سلّم جلالته مذكرةً تحوى كل ما يود الإدلاء به فى تلك القضية بعينها. وقد حملها الملك بين يديه، ثم قال له إنه قد تشاور فى هذا الموضوع مع رجال ذوى وعى ودراية، أخبروه أنه يتعين عليه القيام بما يفعله؛ وإنه سينظر فى مذكرته ليقر

فيها ما يتماشى أكثر مع خدمة الرب وخدمته. بعد ذلك أعلم السيد أنطونيو رئيس الدير السيد خوان إنريكيث أن صاحب الجلالة يأمره بالذهاب إلى الكاردينال إسبينوسا، وهو سيتولى إطلاعه على قرار جلالته بهذا الصدد. فلمّا أتاه، أقصاه ذاك الأخيرفي إحدى الغرف، وأمركاتبه بقراءة المذكرة التى كان قد سلمها السيد خوان أنفًا، وعقب قراءتها قال له: "لقد أمرصاحب الجلالة بالمضى قدمًا فى تنفيذ المرسوم، وذلك بعد موافقة العديد من رجال الدين، الذين أوكلوا تلك القضية إلى ضميره، حينما أخبروه أن تلك الأرواح مسئولةٌ منه، وأنهم مسلمون ويعيشون كالمسلمين؛ وحتى يعالج ذلك الأمر لم يبق لديه سوى الطريق الذى سلك. وما أدهشنى كثيراً هو أن شخصًا له قدرٌ رفيعٌ ومكانةٌ كتلك التى تتبوأها، أراد أن يقلل من شأنه وينوب عنهم؛ لأنهم عندما فطنوا إلى أنك تتهيأ للمثول أمام البلاط، استجمعوا الشجاعة والقوة، وشرعوا فى معارضة الأمر الواقع." أجاب السيد خوان إنريكيث أن المكانة التى أشار إليها الكاردينال هى التى قادته للإسهام فى مسألةٍ تحظى بأهميةٍ فائقةٍ لخدمة صاحب الجلالة ولصالح تلك المملكة. إذا لم يقم الرجال ذوو الشأن على شاكلته بذلك، فمن الذى يقدر على فعله خيراً منهم؟ وقد رد عليه الكاردينال بأنه مصيب، بيد أنه لابد أن يكون الموضوع أكثر عدالةً وتبريراً؛ وأن أمر المرسوم قد حُسِمَ، وقد عزم صاحب الجلالة على المضى قدمًا فيه. وهكذا فهو يرى أنه يستطيع التوجه إلى منزله وعدم معالجته بعد الآن. أخبر السيد خوان إنريكيث أعضاء مجلس الدولة بكل ذلك، وأعطى كل واحدٍ منهم نسخةً من مذكرته، معرِّفًا إياهم بالعواقب التى سيسفر عنها تطبيق المرسوم الجديد. على الرغم من أن كلاً من دوق ألبا، والسيد لويس دى أبيلا – Luis de Avila – القائد العام لرهبانية الكانترا العسكرية – وغيرهما كانوا يرون تأجيل المرسوم لبعض الوقت، أو على الأقل البدء فى تنفيذه شيئًا فشيئًا، فإنهم لم يتمكنوا قط من اقناع الكاردينال بذلك.

الفصل الثانى

كيف توجه الموريسكيون لإحالة المذكرة إلى رئيس محكمة غرناطة، وما فعلوه عنده.

هرع الموريسكيون، فى أحد الأيام التى أعقبت صدور المذكرة الآمرة، إلى سيادة الرئيس بدرو دى ديثا. وكان السيد خوان إنريكيث قد قفل عائداً إلى دياره، بعد أن أوقف جهوده لمعالجة ذلك الأمر. أما الموريسكيان اللذان كانا برفقته، فقد أخذا ما تم إقراره وتوجها صوب غرناطة. حيث عاودا التضرع من جديد إلى الرئيس لتدبير الأمر، فقال لهما إن ما طالبا به صاحب الجلالة هو إصدار قرار يبطل مفعول المرسوم، وهو ما لا يمكن حدوثه، لأن تلك الخطوة قد تم اتخاذها من أجل مصلحتهم وخلاصهم. وأنهما إذا أمعنا النظر فى الأمر، سيدركان أن المرسوم يحقق أقصى ما ينبغى لهم تمنيه؛ فإن ارتداءهم ما يرتديه غيرهم من مسيحيى المملكة وتعاملهم بالطريقة ذاتها، سيؤدى يقيناً إلى تلاشى الاختلافات بين هؤلاء وأولئك، وستضحى نساؤهم أكثر كرامةً، وأنه عليهم هم أنفسهم الاجتماع والتداول سوياً، حتى يخلصوا فيما بينهم إلى الطريقة المثلى لدخول القرارات حيز التنفيذ ، وذلك لتجنب مضايقتهم أو سرقتهم أو دفعهم للرشوة. ومن ثم يقدموا مذكرة حول الطريقة التى يتراءى لهم أنها قادرة على تنفيذ البنود كلها على أحسن حال. وأنه هو بدوره سيفكر فى الأمر من جانبه، وما سيتفقون عليه سيدونه، حتى يسلك المسار الأمثل انطلاقاً منه.

لكن على الرغم من أنهم اجتمعوا فيما بعد، وتوصلوا لطريقةٍ ما، فإن القيام بطلب أمرٍ بعينه لم يبد لهم أمراً صائباً. بل إنهم عادوا وقصدوا منزل الرئيس، حيث

أخبروه أنه لَمّا كان صاحب الجلالة قد عهد إليه بالأمر، فليقرر هو إذن ما يجب القيام به لتنفيذه. وبعد أن يأسوا منه أخذوا يطالعون بعض النبوءات الخاصة بهم، وتظاهر بعضهم بالتسليم؛ أما البعض الآخر ممن هم أكثر جسارة، ولم يكن لديهم الكثير مما يُخشى فقدانه، فقد بدأوا يدعون إلى الثورة. لنسق أولاً النبوءات[٢] المترجمة إلى اللغة العربية، وبعدها سنذكر المنهاج الذى ساقوه للمناداة بالثورة، وكيف تكتموا السر.

(٢) انتشرت فى أوساط الموريسكيين نبوءات تتحدث عن عودة المسلمين إلى حكم إسبانيا، وانتصار الأتراك على الإسبان. (المراجع).

الفصل الثالث

يتضمن النبوءات أو القصص الخيالية التى صاغها موريسكيو مملكة غرناطة حول حريتهم.

كان لدى موريسكيى غرناطة تكهنات بعينها أو نبوءات، أو من الأفضل أن نقول بعض القصص الخيالية، التى لابد أن بعض علماء النحو العرب قد قاموا بصياغتها، وذلك لمواساة من شهدوا انتهاء رجالنا المسيحيين من فتح تلك المملكة؛ وكانوا يعدونها إحدى وسائل بث الثقة فى نفوس القرويين الجهال،حتى يحملوهم على تصديق ما يُقرأ عليهم، وأن فحواه محقّقة ومنزهة عن الخطأ. بما أن تلك الثقة الجوفاء كانت السبب الأكبر فى جزءٍ كبيرٍ من القلاقل التى أثاروها، فنحن نعرضها فى هذا الجزء حرفيًا، كما وردت فى ترجمة الأب ألونسو ديل كاستيّو Alonso del Castillo، مترجم محاكم التفتيش فى غرناطة، وبتفويض منه. وهو الذى أخبرنا أنه كان قد ألفاها مكتوبة بطريقةٍ سيئةٍ، ولابد أن يكون من قاموا بترجمتها عن الأصول العربية قد أساءوا فهمها؛ لذا فقد أضحى العديد منها على تلك الشاكلة: حيث خلت عباراتها من التوافق والتطابق، كما بدت شخوصها وموضوعاتها وقد أُسيء تفسيرها بما يتماشى وإرادة المسلمين المغمومين و المنكوبين، الذين وجدوا أنفسهم مجردين من حريتهم وبلادهم. كانت اللغة العربية مرتبكة بدرجةٍ كبيرةٍ، حتى أنه فى العديد من الأحايين كانت الكلمة عينها تُكتب بنبرة مشددة أو طويلة، فتعطى دلالتين متناقضتين. ويحدث الأمر ذاته عندما يُكتَب اللفظ منبوراً أو بحروف عادية فى الجمل المختلفة؛ لذا فإن قراءة

الموريسكيين – الذين ما عادوا يطالعون دروس النحو والصرف العربية إلا فى الخفاء – وفهمهم لأمرٍ ما على أنه أمرٌ آخر، لم يعد يدعو إلى التعجب.

وأخيراً، فإن النبوءات التى خدعتهم ثلاث: أول إثنتين عُثِرَ عليهما فى كتب عربية موجودة فى مقر محكمة التفتيش فى غرناطة، أما الثالثة فقد اكتشفها أحد الجنود فى كهف يدعى كاستاريس Castares فى البشرات، وهى على النحو التالى، وفقًا للطريقة التى تُرجمت إليها:

النبوءات أو القصص الخيالية التى عُثِرَ عليها فى بعض الكتب العربية الموجودة بمقر محاكم التفتيش بمدينة غرناطة

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا هو النظم الإلهى الذى نظمه سيدى زيد الجرجالى Zayd el Guerguali – رحمه الله – وجاء فيه: "منذ أمد بعيد وأنا أكتم ما تعهدت به النبوءات، حول ما وعد به الرسول الحق وصدّقه الرب! الذى أُنزِل إليه، ليس بلسان البشر وإنما بالوحى. كلام السماء من قبل ربنا العلىّ الذى لا يخطئ، وسوف تتم مشيئته ويتحقق قوله. أود الحديث عن الجيل التاسع الذى رجا المشرّع[٣] ربه مرات عديدة ليتغمده برحماته، فاستجاب الله دعاءه وها قد ظهر. أيها الناس، أريد تحديد ما تنبأ به النبى للجزيرة التى تحوطها البحار، وهى جزيرة الإسبان، وقد تجلى حكمه فى قوله وأقوال الرسل والصالحين، وهى كلها مدونةٌ بصورةٍ تثير الدهشة فى إحدى النبوءات القديمة، التى وردت فى السيرة وفى حديث علىّ ، الذى أنبأ فيه بما سيحدث وصولاً إلى زماننا هذا. وقد خبره الجميع وقالوا هذا ما رواه حذيفة Odeifa وتناقله

(٣) لابد أنه يقصد النبى صلى الله عليه وسلم. (المراجع).

عنه كل الناس، كما يُقرأ في الوقت ذاته برواية الذهبي Zahabe ودانيال Daniel؛ لأنه لاغبار على رواية عليّ حيث يصدق الجميع ما يقول، وقد رُويت عنه مآثر عظيمة حدثت على النحو الذى صاغه. في سياق حديثه عن الغرب وعن الأندلس في نبوءاته، ذكر أن الكافرين سيتملكونها لا محالة - وهو ما حدث بالفعل - وقد شهده الجميع، سواءً أولئك الذين يتمتعون بالفطنة والرأى السديد، أو من يعتبرون بما يجرى من أحداث. ففي عام ٩٤[٤] سيتم احتلالها بالكامل، وسيتم إعمار سائر مدنها، وسينصّب عليها أمير. قبل أن يبدأ كل ذلك، وبموافقة من العامة، سيتوجه المواطنون لسكنى الحقول، وسيزرعون الأرض، ويحل موسم الحصاد عندما يظهر أحد الشهب معلنًا مجيء الخير والحرية. سوف تهدأ القلاقل ويخرج أهل مكة Meca، ويأتي عدو الملحدين من أراضى أراخى Haraje التى تقع باتجاه الشرق من ممالك اليمن Yamen، وسوف يفتح أرض سبتة Ceuta والقصر Alcázar وطنجة وأرض السودان؛ ثم يهبط غربًا بصحبة جيوش ضخمة من الأتراك، ليستعمر قاطنى تلك البقاع، وهم سادة ظالمون وكافرون يعبدون أربابًا كثيرة. وستعود المملكة بأسرها للانقياد إلى رسول الله، وستُعَظَم فيها الشريعة، ويستحوذ سلالة من يعبدون إلهًا واحدًا على جبل طارق - الذى ترجع إليه أصولهم وبداية دخولهم، ولابد لهم من العودة إليه.

سوف يتحقق هناؤنا في الجيل العاشر، أما اليهود فسوف يرزحون تحت وطأة النكبات. سوف تحل محن بالغة بطائفة اليهود الملاعين، وبأولئك الذين يعبدون التماثيل. كذلك سيكون هناك أسرار وغموض كبير في الغرب وفى أراضى السند الموجودة في المشرق، وأيضًا في أراضى أثاساتى Azasate[٥]؛ ومع إحراز النصر والتمجيد سوف تزول القلاقل.

(٤) يقصد عام ١٥٩٦ (المراجع).

(٥) بعض الأسماء الواردة في النبوءات وهمية. (المراجع).

من هناك من تامور Tamor– وهي بلاد في المشرق تقع في مقاطعة شيم Xem – سيجيء الفاتح إلى حصن داماس Damas، وسيقدم بصحبته قادة عظام من البربر: الشريفي Xerife، وعيدار Eidar، وزيد الأسمر Zayd el Moreno، ويحيى الفريد Yahaya el Farid، وعبد السلام Abul Celem - الذي سيبرز بقوة ذراعه العارية بين الناس أجمعين. وسيضحي عقاب غرناطة قصة تدعو للتعجب، ففي غمار الاضطرابات أثناء الحرب، ستُمحَق منازلها عبر الأصفاد التي ستكبلها بالكذب والخداع، حتى تشرف أجيال مواطنيها على الاندثار بقرار من الملحدين. عندما يذهب النبيذ بعقول الحكام، سيصدرون قراراتهم بهدم القرى، وفي النهاية سيعني الجميع بعقد معاهدات سلام. أثناء المصالحة سوف تضيع قرى وحصون عظيمة من جراء الخيانة، وفي عامي ٩٢ و٩٣ ستُقَسَّم مجتمعات ضخمة ما بين جانبين؛ ستُفقَد مالقة بالكامل، ولن تواجه ذاك المصير بمفردها بل ستضيع المدن جميعًا؛ لأن تغليب الشرف والكرامة يبيد الممالك. ومن لا يحكمون ببصيرة نافذة سوف يلحقهم الأذى.

في مجتمع حرب البشر الطاحنة هذا سوف ينقص الإيمان، وتُهجَر فيه الشريعة. سوف يضحى العقلاء محل استهزاء الجميع. وسينشغَل الحكام بإخلاء الأهالي عن قراهم، وتخريب الأرض، وقلة الدخل. وذاك دون أن يقدر أي منهم على المساس بإفريقيا، التي خلّفوها وراء ظهورهم. سيعقب ذلك مباشرةً خوض الكافرين للحرب، ولن يتبقى رجال في مملكة غرناطة. في غضون العام الطويل سيتعاظم الشقاق، ولن يفلت من براثن المشقة والخزي سوى أشخاص قلائل، وستحدث وفيات. أما الظفر بالغرب وعرشه فهو بانتظار الأفارقة؛ لأن ما أخبر به الرسول الحق لا محالة واقع بين البشر: "سيفرون من قراهم؛ وعندما يخطئ الابن العاق، سيكون الرحيل أفضل؛ ولمّا يحل بساحتهم أجل الله ليلاً قبل أن يغشاهم النهار، سيتهيأ البحر حتى تعبره السفن دون مخاطر". فما أنزله الله لا ولم يُنقَض. وستُطبق شريعة المسلمين في أرض المسيحيين.

لمَا يحكم الأحدب، ستصير الأمور دومًا من سيء إلى أسوأ: سوف يأتى السود لاحتلال سبتة وأراضى مرسية، وسيقوم اليهود بتشييد حصن بالوماس Palomas.سيُغير الأتراك بجيوشهم على روما، ولن ينجو من بين المسيحيين سوى أولئك الذين يعودون إلى شريعة النبى، أما البقية فمآلها إلى السبى والقتل. تلك الجولة ستقع حتمًا فى كل من الغرب والجنوب وكذا فى أرض السودان(٦)، وستحدث تلك الظاهرة فى كل الممالك، وسيخرج من أرض تيبار Tibar فاتحون للتصدى للكافرين". وهو يقول أيضًا: " آه يا جبل طارق! إن دخولك وفتحك لهى البشارة حقًا!".

عليكم أن تدركوا مما سقناه أنه لن يتبقى غصن من فرط الفاقة فى كل من سبتة، وطنجة، والقصور، وسائر الأقاليم؛ وسوف تُفتَح جميعًا. وبهذه العودة أيضًا سوف تُحرَث وتُشيَد جزيرتا إسبانيا ومالقة، وستسعدان بتطبيق شريعة المسلمين، وكذا ستُكسَر شوكة الخيلاء التى سادت بلش والمنكب فى زمن الإلحاد، وستُمحَى خطايا قرطبة وزلاتها، وتُخرِس أصوات المؤذنين أجراسها - ولكم هى فى احتياج إليها!. سوف يتبع ذلك طرد الكفر من إشبيلية، ومع ظهور المسلمين الموحدين ستشهد إصلاح الدمار الذى لحقها أثناء خسارتها. وستتحقق نبوءة النبى دانيال، الذى قال إنه لابد من قدوم الحرية بعد الهزيمة على يد ملك طاغ، وأنا أتضرع إلى الله أن يُثبِت صحة ما قيل فيها.

قال الرب العلىّ فى كتابه المقدس: "الم(*) غلبت الروم(*) فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون(*) فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون(*) بنصر من الله ينصر الله من يشاء وهو العزيز الحكيم."(*) أولى علامات

(٦) يقصد إفريقيا الجنوبية. (المراجع)

(*) سورة الروم، مكية، الآيات ١-٥ الاستشهاد فى الأصل الإسبانى مغاير للترجمة بعض الشىء؛ لأنه ينتهى فى منتصف الآية الرابعة، ثم يستكمل الآيات على أنها جزء من فحوى النبوءة؛ والوقف غير مضبوط. (المترجمة).

تلك النبوءة أيها السادة ستكون علامة كبيرة للغاية: حيث يظهر شهاب ضخم جداً في كبد السماء، وينشر نوراً ساطعًا، بعدها سيظفر ملك الأتراك بإحدى المدن ويأسر أهلها وملكها. عقب ذلك بفترةٍ وجيزةٍ للغاية سيستحوذ على جزيرة رودس الكبرى Rodas، التي ستبقى دومًا في يد المسلمين، وستكون هناك انتصارات أخرى للمسيحيين، وتُعَد من العلامات الكبرى التي سوف تحدث لاحقًا. سوف تأتي جيوشهم وأهلهم إلى الأندلس بأعدادٍ هائلةٍ، حتى أنهم سيفكرون في الإجهاز على قاطنيها، وسيدخل الكثيرون في المسيحية خوفًا منهم. لكن فيما بعد سيظهر من بينهم صديق حقيقي، وسينصح لهم أن هبوا وثوروا لدين الله. حينئذ سيُغير هلال الأتراك على المسيحيين، وعلى كل مدينةٍ وموقعٍ وحصن.

من أجل ذلك ستنشب ثلاث ثورات: أولاها ستبوء بالخسران و الخزي، وسيغلب على الثانية الخديعة والكذب، وستلقى بهم على مشارف الموت، أما الثالثة فتقوم على الكرامة والفضل، وتضحى المدخل والمعبر للفوز بسائر المدائن والممالك. سيكون زحف الأتراك على المسيحيين عارمًا، حتى أنهم سيدخلون ويفتحون كل ممالكهم ومدنهم من بحر ديلان Dailán وصولاً إلى بحر مرقد Marcad؛ ولن يخلّفوا وراءهم أي ذكرى، ولن يُسمَع سوى نحيب المسيحيين. هكذا إذن ستضيع تلك الجزيرة وأهلها، وسينزل عليها الغزو كسيل المطر المنهمر من السحاب، وسوف يضحى أسيادها عبيداً. عسى الله أن يبلغنا رؤية ذاك التعاقب، وهو الوهاب القدير!. ثم أضاف المؤلف متناولاً الحدث ذاته ما يلي:" عندما يروعك الزمن من الأعداء، وتجرحك الضمائر ويبتعد عنك الأصدقاء، ويتملكك الخوف من شتى الأرجاء، انتبه إلى تدبير ربنا الذي سيمدك بالحرية التي تتمناها – وهي قريبة المنال – وستتجلى الشهب ونجوم الطالع، وستأتيك رسل السكون والبشارة"؛ لذا عليك بعدم اليأس، ففي أدق خبايا وأسرار الحكمة الإلهية تكمن كبرى العجائب والأسرار، فإذا ما ألفيت قلبك في غمار كل تلك الخطوب ينهشه الرعب، ولم تنكشف له ما كنت ترقب من علامات، أو تسمع الجديد حول الصديق الذي تنتظره فقل: "ربنا هب لنا من لدنك رحمة" ففي قولها سر عجيب. فكم من أمور يزيغ

لها القلب، ثم تغمره بعدها السعادة والسكينة! العديد من الشئون، بعد أن نسعى لنيلها، تورثنا الطمأنينة والدعة. ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾(١٣٠)(٧).

إلى هنا تنتهي حرفيًا تلك النبوءة أو القصة الخيالية، التي عثر عليها - كما أسلفنا - في بعض الكتب العربية الموجودة في مقر محاكم تفتيش غرناطة. ويبدو أن المدقق يدعى أن مؤلفها مرابطي اسمه سيدي الجرجالي Cidi el Guerguali من بلدة جرجالة Guergala بمدينة ليبيا Libia، التي قدم منها المرابضون almorabidas أو المرابطون morabitines إبان استعمارهم بلاد المغرب، وفي أعقابها إسبانيا. والنبوءة على ما يبدو هي تجميع لكل الأمور التي تحويها السنة، أو علم اللاهوت العربي، حول ما قام به أولئك الأشخاص من غزو لبلدنا أندلوثيا، زاعمين استلهام المرجعية من كتابات كعب الأحبار وحذيفة وعليّ، وخلفاء غيرهم من طائفة المرابطين(٨). وهي - كما أوردنا آنفًا في مؤلفنا إفريقيا - فيها العديد من الآراء المخالفة لعقيدة محمد، على الرغم من أنهما يندرجان كلاهما تحت مسمى وطائفة واحدة على سبيل العموم.

النبوءة أو القصة الخيالية الثانية التي عُثِرَ عليها أيضًا في الكتب التي تم تجميعها في مقر محاكم التفتيش في غرناطة:

بسم الله الرحمن الرحيم. جاء في السنة المطهرة أن رسول الله كان جالسًا في أحد الأيام عقب صلاة الظهر يتحدث إلى أتباعه - رضوان الله عليهم - وإذ ذاك حضر ابن أبي طالب وفاطمة الزهراء - رضي الله عنهما - وجلسا بين يديه وقالا له:

---

(٧) سورة طه، آية ١٣٠ (المراجع).

(٨) واضح من الفقرة أن أفكار المؤلف مشوهة، حيث لا يدرى ما هو الاسم الصحيح للمرابطين ولا نقطة انطلاقهم، لكنه - مع ذلك- على دراية بالكتابات الموريسكية التي يكثر فيها بالفعل ذكر حذيفة بن اليمان وكعب الأحبار. (المراجع).

"يا رسول الله، أخبرنا بما سيؤول إليه مصير أمتك في آخر الزمان، وكيف يأتي يوم القيامة؟ فقال لهما: سوف تقوم القيامة عندما يظهر أكثر الناس إفسادًا وخبالاً، وسرعان ما يأتي جيل من آلي إلى جزيرةٍ في أقصى أرجاء الأرض - تدعى جزيرة الأندلس - وسيكون آخر قاطنيها من أهلي، وهم يتامى هذه الديانة وختام سلالتها. فليتغمدهم الله برحمته آنذاك!. في أثناء حديثه اغرورقت عيناه بالدموع، ثم قال: " هم المضطهدون، هم المحزونون، هم من أهلكوا أنفسهم، وهم المنكوبون، الذين قال فيهم الله.﴿ مَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٥﴾. ﴾ اقرأوا السورة حتى نهايتها كل ما كُتِبَ بها حول تلك المسألة، وفيها يشير الله القدير إلى ما ذكرته. وسيكون ذلك نظرًا لنسيان أهل الأندلس لأمور الدين، واتباعهم لأهوائهم ورغباتهم، وولعهم الشديد بالدنيا، وهجرهم للصلوات، والاعتراف بالزكاة ثم الامتناع عن أدائها، وعدم الاكتراث سوى للشهوات والقلاقل والقتل. ذلك بالإضافة إلى تفشي الكذب بينهم، وعدم احترام الصغير للكبير، كما لا يشفق الكبير على الصغير. سوف يستشري بينهم الظلم والجور والحلف بالباطل، وسيبيع التجار ويشترون - متحرّين التربح والتدليس والخديعة في بيعهم وشرائهم - كل هذا سعيًا وراء متاع الدنيا، وجشعاً وراء زيادة الأموال والمحافظة عليها، دونما تريث للتدبر حول كيفية اكتسابها، وماهية ما يملكون، وهل حصلوا عليه من حلال أو حرام؟" فلمّا قال ذلك اغرورقت عيناه بالدموع مرةً أخرى وأجهش بالبكاء، فبكى الحاضرون كلهم لبكائه. ثم استطرد بعدها: "عندما تظهر الشرور في ذاك الجيل، سيكلهم الله القدير إلى أناسٍ أشر منهم، سوف يستحسنون إذاقتهم أقصى صنوف التعذيب، عندئذ سيطلبون الغوث من أعدلهم وأبرهم، ولكنهم سيمتنعون عن إعانتهم. وسوف يسلط الله عليهم من لا يشفق على الصغير أو يوقر الكبير، ولسوف يُحاسب كل امرئ بذنبه ويلقى جزاءه. لم نشهد قط تفشي الربا في جيلٍ من البشر أوانتشار الغش في البيع والشراء والميزان والمكيال، إلا عاقبهم الله و حرمهم الغيث من على وجه الأرض، وحيل بينهم وبينه. لم تستشر الفاحشة إلا أرسل الله الفناء والموت. لم يستمرئ قوم الربا في البيع

والشراء، والحلف بالباطل والتكبر، إلا ابتلاهم الله وأنزل بساحتهم صنوف شتى من الأمراض المهلكة. لم يظهر قط في أمة ميتات السوء والقتل علني، إلا ضيّق الله عليهم وأسلمهم إلى أيدى أعدائهم. لم يشع في قوم عمل قوم لوط إلا عاقبهم الله بعدم قبول صلواتهم أو الاستماع إلى دعائهم في بلواهم وشقائهم؛ لأن الخطيئة عندما تشيع في الأرض يُنزّل الرب العليّ العقاب الواجب من السماء. ولا يلعن الله أحداً من أمتى حتى تنعدم الرحمة بينهم، ولن يعاقب عبدٌ في هذه الحياة الدنيا بأمرٍ أسوأ من غلظة القلب، وعندما يقسو قلب المرء يلعنه الله، ولا يصغى إلى حاجته أو يتغشاه برحمته. وكلما غضب الرب على عباده أكثر، أراد أن يقترب يوم القيامة، وذلك لعظم خطاياهم، وتناسيهم أعمال الخير، وابتعادهم عن الطريق المستقيم". وهنا شرع في البكاء وهو يقول: " ليرأف الله بأهل تلك الجزيرة، عندما تظهر فيهم تلك الذنوب والفواحش، ويمتنعون عن تنفيذ أحكام القرآن والامتثال لها؛ لأن السواد الأعظم منهم في تلك الآونة – بحجة الورع والتدين – سيسعون وراء الحياة الدنيا، ويتظاهرون بالخضوع، وستضحى ألسنتهم أكثر عذوبةً من العسل والسكر. أما قلوبهم فهي كقلوب الذئاب، وأفعالهم هي أفعال رجال وضعاء وأشرار. من أجل ذلك سيرسل الله إليهم عذابه؛ ولن يستمع إلى صلواتهم لأنهم يساندون الظلم، ولن يكون من أمتى الجائرون الذين يسعون إلى إلحاق الأذى بغيرهم على الدوام. من يتبسم في وجه امرىء ظالم، أو يفسح له في المجالس، أو يساعده أو يمنحه حظوة لاقتراف الشرور، فهو يمزق حبل نجاته. إذا ما طغى أحد الملوك في الأرض، ولم يحفظ الحقوق في رعيته، سيضيق الله عليه في ملكه و يجد شحة في الخبز والفاكهة وسائر صنوف الرزق الأخرى. وعندما يحكم بالحق والعدل، ولا يمسى في مملكته قسوة أو مظالم، فسيُغدِق الله سبحانه وتعالى رحماته على مملكته وأهله، وسيزداد النماء في كل الخيرات.

وهكذا عندما يسود في أهل تلك الجزيرة الظلم، وخذلان الحق، وتضييع الأمانة، وتسود فيهم الكبرياء والخيانة، والإساءة إلى اليتامى، وخذلان الحق، والتجبّر في

معاملتهم، والخروج عن مبادىء الرحمة التى قضى الله بها، واتباع الشيطان، والانقياد وراء المعاصى، والكذب وشهادة الزور، واحتقار الأغنياء، والتكبر على الفقراء، انطلاقًا من قسوة قلوبهم وعجرفتهم. ولمّا يمسى حديثهم عذبًا وعملهم مريرًا، حينئذ سينزل الله بهم عذابه". بعدها عاود البكاء قائلاً: "ورحمة ربى، وجلال أسمائه العلى، لولا شهادة أن لا إله إلا الله، وأنى محمد رسول الله، ومحبة الله لى، لأرسل الله عليهم عذابًا رادعًا وشديداً. وازدادت حدة بكائه وهو يقول: "اللهم الطف بهم!" مكرراً تلك الكلمات ثلاث مرات. "ولكن من أجل ذلك سيرسل الله عليهم حكامًا قساةً غارقين فى الضلال، حتى أنهم سيسلبونهم ممتلكاتهم دون وجه حق، وسيجعلونهم أسرى لهم، ويقتّلوهم، ويدخلوهم فى ملتهم، ويحملونهم على أن يشاركوهم فى عبادة الأصنام، ويجبرونهم على تناول لحم الخنزير، وسيستغلونهم هم وأعمالهم، وسيمعنون فى تعذيبهم حتى يدفعوهم إلى لفظ اللبن الذى رضعوه من نهايات أظافر أصابعهم، وسيشهدون قمعًا شديداً فى تلك الآونة، حتى ليمر المرء على القبر المدفون به أخيه أو صديقه فيقول: "آه! يا ليتنى أكون معك!". وسوف يستمرون على تلك الحال، حتى يؤول بهم المآل إلى فقد الثقة تمامًا فى إمكانية النجاة إلى شريعة الخلاص، وسينقلب السواد الأعظم منهم على أعقابهم آيسين، ويرتدون عن الدين الحق". وهنا إزداد بكاؤه وهو يقول: "سيتغمدهم الله سبحانه برحمته، ويطل عليهم بوجهه الشفيق، وينظر إليهم بعين العطف والرأفة والمغفرة؛ وسيحدث ذلك عندما تتوقد فيهم سموم عدوهم وكيده، عندما يهرعون لإحراقهم فى أتون النيران المستعرة - رجالاً ونساءً، أطفالاً فى مقتبل العمر، وشيوخًا فى مرحلة الكهولة. ولمّا يشرعون فى إخراجهم واستئصالهم من قراهم، حينئذ ستثير الملائكة القلاقل فى السماوات، و سيتوجهون فى حمية واندفاعٍ عارمين للمثول أمام عرش الرحمن، ويقولون له: "يا إلهنا، إن نفراً من آل حبيبك ورسولك تُشوى أجسادهم فى السعير، وأنت المنتقم الجبار! إذ ذاك يبعث الرب القدير من ينجدهم ويُخرجهم من ذاك الكرب و الابتلاء العظيم. وها هنا بكى علىّ - الذى تقبل ما قيل فى رضى - وبكينا جميعًا معه. ثم قال له: "فى أى عامٍ يرسل الله الغوث ويشفى علة قلوبهم المنكوبة؟ فأجابه صلى الله عليه وسلم هكذا: إيهٍ يا علىّ! سيكون ذلك فى جزيرة

الأندلس، في العام الذي يوافق مطلعه يوم سبت؛ والإشارة التي ستنبئ بقدومه هي أن يرسل الله سرباً من الطيور يضم طائرين معلّمين، أحدهما الملك جبريل Gabriel والآخر هو الملك ميكائيل، وسيضحي الأصل الذي تنشأ منه طيور الببغاء في سائر الأرض؛ وهما يعلنان الناس بقرب مجيء ملوك الشرق والغرب لإغاثة جزيرة الأندلس تلك، وعلامة ذلك أن يبدأوا أولاً بالتصدي لهم في جهة الغرب. وإذا ما قُدّر لتلك الطيور الكلام، فلسوف تقول إن تلك البقعة التي تنطق فيها ستشهد انقلابات ضخمة في الغرب تنجم عن الحروب الدائرة هناك، وسيعاني الكل من مخاوف واضطرابات عظيمة. سوف تحدث قلاقل و ثورات شعبية نظراً للنزاع بين شريعة المسلمين وشريعة المسيحيين. وسيرجع العالم بأسره لشريعة الإسلام، بيد أنه لاحقاً سيقع في معضلات كبرى. في ذاك العام ستكثر السحب و تندر الأمطار، وتينع الأشجار بوفرة من الفاكهة، أما مواسم حصاد القمح فستُمنَى في الجبال الباردة بمحصول أكثر وفرة من السواحل، والنحل كذلك ستترع خلاياه بالعسل في ذاك العام المبارك". إلى هنا تنتهي تلك النبوءة.

النبوءة الثالثة التي عُثِرَ عليها في كهف كاستاريس

بسم الله الرحمن الرحيم. أحمد الله وحده، الذي لا شريك له. هذه نبوءة مستخرجة من حديث الرسول الذي اصطفاه الإله وأخلصه، ويدعى طوق الحمامة Tauca el Hamema وذلك للمقارنة بين خلقه البديع وملاحته، وجمال الألوان التي تزدان بها صدور الحمام. وهذه هي فحواها: " إياكم والالتفات إلى الأحاديث اللاهية، وزخارف الحياة، ورفعة الشأن؛ لا يفارقن الموت مخيلتكم، فالحياة تشرف على نهايتها، وخطاياكم يفوق حجمها الجبال. فروا إلى الله، ولا تخلدوا للنوم، فتستيقظوا مدفونين بين الحسرة والندامة. لا تحصوا البساتين الظليلة العامرة، المحيطة بالمباني الفخمة، والنساء اللاتي يلبسن تيجانا وزينة؛ وتذكروا أهوال يوم القيامة، وزفير جهنم ولهيبها.

أما الساعة فيسبق قيامها تلك الإشارات: حركة الأرض وتصدعها، سيادة الفزع والذعر الشديدين، وعلامات أخرى يعجز البشر عنتفسيرها. وحذيفة هو أكثر من تناول تلك العلامات، وعدد ما يقول إنه قد سمع منها من رسول الله الهادى ما يربو على السبعين، ثمانية منها الأكثر بروزاً، والبقية تُعَد علامات صغرى تأتى على أثرها[9] وقد سأل الكثيرون المصطفى عنها جميعًا، فكشف لهم عن بعض المشهور منها، فقال إنه سيكون منها: ظهور رسول الله، ونزول القمر إلى بساتين تهامة، بعد طلوع الشمس المتصدعة. تلك هى أشراط القيامة التى أتى بها القرآن وتحدث عنها، والبقية التى على شاكلتها عديدة، وهى مشهورة فى تلك الآونة وفى عالمنا هذا، وتُعد أشد وضوحًا من الضوء الساطع. قال المصطفى: "عندما ترون النساء يقتفين خطى الرجال، ويسعين حثيثًا فى طلبهم دون استحياء أو خجل، وهن ينهقن كالبغال من فرط الشهوة؛ عندما يكثر الربا والكسب الحرام بين الرجال، ويضحى السب والقتل هو نهجهم، ويتضاعف عقوق الأبناء لآبائهم؛ لمّا تنكسر نفس المؤمن التقى، ويضطهد العلماء حتى ينتهى بهم المآل إلى خدمة الأشرار؛ إذا ما ألفيت سائر أرجاء دارك عامرةً بالمحرمات والرزق الحرام؛ متى أمسى حموك أقرب إليك نسبًا من أخيك الشقيق، وتخليت عن أخيك بينما أطعت صديقك؛ إذا رأيت الأم العجوز تتكسب من عرض بناتها بين الرجال، والابن يخرج عن طوع والديه فيجيب امرأته فى كل الأمور؛ عندمًا تجد التماثيل فى بيوت الله، وتتبع النساء العادات الخليعة والمفاسد الآثمة؛ إذا بات رجال الدين يعيشون فى مبان مترفة وفخيمة، وتزايد عدد الآثمين من المتعجرفين بينما قل تعداد الصالحين، فأضحى المشفقون من خشية الله فرادى كالأيتام، والخاطئون لجوا فى عنادهم ورؤوسهم أقسى من الجبال الثقال؛ كما خذل الصديق الصدوق رفيقه، وما عاد المرء بقادر على الوثوق بصاحبه؛ متى عاصرت افتقار أصحاب الجود وعلو شأن الأشحاء، متى كف كرم الأيدى المعطاءة وتزايدت أعداد السائلين؛ حينما ترى الشريعة وقد هُجِرَت، وندر

(9) لابد أن مترجم النص العربى قد أخطأ، فالعلامات الصغرى تسبق العلامات الكبرى. (المراجع).

أنصارها كالخيلان البيضاء بين الجياد الداكنة؛ عندما تجد الرجال ذئابا يرتدون لباس بني البشر، حيث تأكل الذئاب مع الذئاب، ومن لا يتذأب تأكله الذئاب؛ إذا ما رأيت تكاثر حدة الخلافات، وتناقص الغيث من على سطح الأرض، حينئذ تقع الواقعة.

في كل مرة يذكرها رسول الله تمتلئ عيناه بالعبرات، ويقول:" ترى كيف ستكون حياة من يولدون في ذاك العصر؟ كذلك فقد أورد في سياق أشراط القيامة نيرانًا ستوقَد في روما لتسري بين البشر و المياه والأراضي، وستهب رائحة على وجه الأرض، فتلفح نيرانها صدور الملحدين. وأخذ يعدد سقوط قرى كائنة في شرق حصين Hixecen، وأخرى إلى الجنوب أكثر من ساثيرة(١٠) Sacera

عندما يستولي الرومان على القسطنطينية بقوة الأسلحة، وعندما ترون المسلمين – أعزة في نصرهم – يفتحون روما ويظفرون بالبرتغال، آنذاك ستنمو لديهم الثروات من أحجار كريمة وأموال حتى يتخلوا عن حمل السلاح. إذا ما آل مصيرالعالم إلى ذاك الكمال، سيكون ذلك مؤشراً بدنو النقصان الذي يعقب الكمال. سوف يعصف القلق بالقلوب، وستنساب الحياة وتتفلت من بين الأصابع. ولكن قبل الخوض في ذلك أود أن تدركوا أن الله سيقضي بخروج ملكٍ طاغٍ في الغرب سيحكمه ويخضعه، وسيخلو محياه من أي ملمح إنساني: حيث يسيء معاملة الناس والحكم عليهم، وسيموتون على يديه بالرغم من مآثرهم كلها. في أعقاب ذلك الملك سيقود ملك آخر مغوار يدعى يعقوب Jacob، ستتعاظم في عهده المحن والبلايا، وسيموت الناس من الفاقة. سوف تشهدون في الغرب مضايقات واضطرابات على نطاق واسع، وستأخذ أعداد الناس في التناقص بشدة. ستضحي الأندلس يتيمة من دون ملكٍ أو شخصٍ مطاع الكلمة، وستظل على تلك الشاكلة لبعض الوقت: قاتمة، ومشوشة، ومظلمة؛ إلى أن يأتيها نبأ جديد من روما. فمن هنالك سيطلع ملك لا تشوبه شائبة، ملكٌ ابن ملكٍ.

(١٠) تعود النبوءة الموريسكية إلى ذكر مواضع غير معروفة. (المراجع).

إيه أيها الرجال! سيعبر البحار، تصحبه جيوش عظام ستفد إليه لا محالة، وترافقه عند مجيئه إلى غرناطة : المملكة الناصعة المشرقة، حيث يقولون له: "أنت مليكنا ولا مناص، وحاكمنا على الدوام". فيصعد هو بدوره مع جيوشه وكتائبه إلى قصور الحمراء، حيث يظل متخفيًا لبضعة أيام. من تلك البقعة سيفتح العديد من الحصون المهيبة، ثم يعقب ذلك ببعض قمم الجبال والأقاليم الصغيرة؛ آنذاك ستشهدون تأسيس عرش المسلمين الثابت وصولجانهم. سيظفرون بقشتالة دونما شك، وسيستولون على تسعين مدينة من براثن الملحدين، وستتحسن أحوالهم على يديه، وتنعم كل مدن الغرب بحكمه. فى أولى صولاته سيستحوذ على مدينة أنتقيرة، حيث يعتلى أسوارها ويحطمها بذراعيه العاريتين.

سيدوم ذاك الانتصار سبع سنوات، ستُحمَل خلالها الخيرات من أراضى الملحدين. جل جلال ربى، الذى سيقضى بتطبيق العدل! حتى يتجرع الكافرون كؤوس المرارة، عندما يحين أوان تحقيق ذاك المجد، وإنفاذ قدرة الإله الأعلى. من ثم يوجّه ذاك الرجل رحلته صوب شيقوبية Segovia، ويدخلها فى شهر رمضان، لتستمر بذلك مسيرة انتصاراته، التى ستتواصل من خلال الظفر بحصون المسيحيين بمهارةٍ وحذق. ههنا تدب خلافات بين الحكام والملك. ويظهر دولارفى[11] Dolarfe الملك المسيحى، لينقلب على الشعب بأسره، ويكسر شوكته، حتى يرغمهم على التحصن فى فاس. وعندما يهمون بعبور جبل طارق، سيعوقهم البحر عن بغيتهم، وستحاصرهم جيوش المسيحيين الضخمة التابعة للملك دولارفى من جميع الاتجاهات. فيفر الموسرون هربًا فى السفن، أما من لم يتمكنوا من العبور فيموت غالبيتهم ذبحًا، والبقية تغرق فى البحر. آنذاك يبعث الله ملكًا رفيع الشأن، خفى، هامته أعلى من الجبال، يضرب البحر بيده فينفلق، ويخرج منه جسرٌ يرد ذكر اسمه فى تلك الرواية، فتهرب جماعتان من الناس سباحةً، أما الجماعة الثالثة فتفنى بالذبح والغرق حتى يتسنى للمسيحيين

(١١) هو اسم من خيال مؤلف النبوءة. (المراجع).

تحقيق النصر. وفى مرحلة ما سيدخلون فاس بقوة السلاح؛ وإبان اقتحامهم لها، سيبحثون عن ملكهم، فسيعثرون عليه مختفيًا فى المسجد، شاهرًا سيف إدريس Idris فى يده، وقد اعتنق الإسلام؛ فعندما يرون ذلك، يتحول معه المسيحيون كلهم إلى الإسلام. فيما بعد يتوجه الملك إلى الكعبة فى مكة، ولا يزال يصلى حتى يرى فتحة بئر زمزم وماءه.

فى أعقاب ذلك يولد المسيح الدجال اللعين، ويخرج على الناس. آنذاك سيرسل الله قحطًا شديدًا، يدوم سبعة أعوام(*)، لن يظهر خلالها خبزٌ أو حبوبٌ أو ماءٌ، سوى ما يُبديه ذاك العجوز الملعون؛ فيقوم حينها بغرس البذور عند منتصف النهار، ليحصدها مع المغيب، ويزرع الأشجار والنباتات بيمناه، فيحصد ثمار الفاكهة بيسراه. سيأمر الميت أن يحيا، فينهض واقفًا، فيدَّعى أنه باعث الموتى، والإله، والسيد الذى ليس كمثله شىء؛ أما من يتبعه فلن ينال خيرًا قط، وسيموت كافرًا، ويمسى مثواه فى سواء الجحيم. سيتبع المسيح الدجال الناس كاشفًا لهم عن العديد من صنوف الرزق وعيون المياه(*)؛ وسوف يظهر على جبهته عبارة: استبد وعصى. ستكون ملامح

(*) وفى حديث أبى إمامة الباهلى عن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال: "قبل خروج الدجال ثلاث سنوات شداد، يصيب الناس فيها جوع شديد، يأمر الله السماء فى السنة الأولى أن تحبس ثلث مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلث نباتها. ثم يأمر السماء فى الثانية فتحبس ثلثى مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلثى نباتها. ثم يأمر الله السماء فى السنة الثالثة تحبس مطرها كله فلا تقطر قطرة، ويأمر الأرض فتحبس نباتها كله فلا تنبت خضراء، فلا تبقى ذات ظلف إلا هلكت، إلا ما شاء الله". سنن ابن ماجة (٤٠٧٧) (المترجمة).

(*) وفى حديث النواس بن سمعان: "يأتى على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرىً، وأسبغه دروعًا، وأمدّه خواصر، ثم يأتى القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم فيصبحون مُمحلين ليس بأيديهم شىء من أموالهم، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجى كنوزك؛ فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلاً ممتلئًا شبابًا، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك". رواه مسلم فى الفتن برقم (١١٠)، وابن ماجة (٤٠٧٥)، والإمام أحمد فى المسند (١٨١/٤)، والترمذى (٢٢٤٠)، والحاكم فى المستدرك (٤/٤٩٢–٤٩٤) .. وهو فى سنن أبى داوود (٤٣٢١) مختصرًا. (المترجمة).

وجهه مثيرة للفزع، فهو ليس له سوى عين واحدة، ويحمل على رأسه وعاءً ممتلئًا بالطعام اللذيذ، ورأسه مستدير كاستدارة القمر. سترون الناس وراءه بأعداد غفيرة، حتى لن تسعهم الأماكن هم وأبناءهم وأسرهم. سوف يمتطي دابةً يثير منظرها الفزع(*)، وسيمتد الطريق أمامه على مرمى البصر؛ وسيطوف الدنيا بأسرها فى سبعة أيام. ومعه نهران: أحدهما من ماء والآخر من نار، فإذا شرب من تبعوه من الماء ألفوه ملتهبًا كما النيران(**). سوف ترافقه كل أسر اليهود(***)، التى سيحجب بها ضوء النهار.

حينئذ يرسل الربُّ العلىّ المسيحَ عيسى بن مريم - عليه السلام - فيخرج لمقابلته فى أراضى الشام Hexen، فلمّا يبصره يخر أمامه كأنه جبان مخنث، وتقول الحجارة والأمكنة: ليُدفن أسفلنا عدو الله، ويبقى المسيح الهادى، الذى سيسير بفضله الذئب جنبًا إلى جنبٍ مع الغنم فى وئام. سوف يلعب الصبيان مع الحيات والأفاعى السامة، ولن تضيرهم، حيث تجبر على تطبيق سنة رسولنا، والحكم بمقتضاها وحسب. يشرف على الصلوات والمواقيت سلالة رفيعة متصلة النسب من نسل محمد، وآنذاك يتحول كل ملحد إلى دين الله. لمّا يجد أهل الأرض ما هو معلوم لهم، يصعد المسيح إلى جبل طهور Tahor، ويحطم أسوار يأجوج ومأجوج، وهم

(*) فى حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: "له - أى للدجال - حمار يركبه، عرض ما بين أذنيه أربعون ذراعًا". رواه أحمد فى مسنده (٣/٣٦٧-٣٦٨) بإسنادين أحدهما رجال الصحيح (مجمع الزوائد (٧/٣٤٤). (المترجمة).

(**) فى رواية عن حذيفة أنه - صلى الله عليه وسلم - قال فى الدجال: "إن معه ماءً ونارًا، فناره ماء بارد، وماؤه نار فلا تهلكوا". رواه البخارى فى الفتن باب ذكر الدجال برقم (٧١٣٠) ومسلم فى الفتن برقم (١٠٦-١٠٧). (المترجمة).

(***) وفى حديث أبى أمامة الباهلى - رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله عليه وسلم- :" الدجال معه سبعون ألف يهودى كلهم ذو سيف محلّى وساج". رواه ابن ماجة برقم (٤٠٧٧). الساج: الطيلسان الأخضر. (المترجمة).

الأقزام الذين يفوق تعدادهم عدد موج البحر، وتتباين أشكالهم ووجوههم وملامحهم: فبعضهم حجمه مثل الريشة التى يُكتَب بها، والبعض الآخر تفوق قامته الجبال، وهناك آخرون لهم آذان طويلة؛ حتى أنهم يجلسون عليها ويفرشون الأرض ببعضها؛ ومشيتهمْ مسيرة ثمانين سنة(*).

تحوى تلك النبوءة المزيد من الهراء والهذيان، الذى لن نضمنه روايتنا حتى لا يشوهها؛ وإذا كنا قد توسعنا فى سردها، فقد كان هدفنا هو منح القارىء فرصة للضحك، وكذلك فهى تُعَدُ أحد الأمور الرئيسة التى استند إليها الموريسكيون فى ضلالهم؛ وكان عدم إدراجها سيمثل تقصيراً. وهكذا أخذوا يقلبون تلك التكهنات التى كانوا يوقرونها كما لو كانت مقدسة، وشرعوا يبحثون فيها عن أمورٍ تواسيهم، فهمّ رجال الدين -الذين ربما اضطلعوا بمهمة تأليفها - بتأويلها، محاولين بشتى السبل تشكيلها على نحو يجعلها أكثر موائمة لبغيتهم، ألا وهى إشعال الثورة فى المملكة. كان فرج بن فرج، وداود، وآخرون أول من بدأ فى تأليب العامة من الجهال، مدعين أن أوان تحريرهم الذى أنبأت به التكهنات قد حل؛ لأن سموم المسيحيين - أعدائهم الحقيقيين - وأحقادهم لم تكن نيرانها قد أحرقت صدورهم قط على النحو التى تشهده تلك الآونة. حتى أن ملائكة السماء، لما شهدت المحن والنكبات التى يواجهها أهالى تلك المملكة، امتثلت أمام عرش الإله راجيةً إياه أن يتغمدهم برحمته. وأتت لانقاذهم من وطأة الإذلال والأسر، حيث شاهدهم أناس كثر يسيرون فى السحاب على هيئة طيور تحلق أعلى البشرات، يقودها طائران أضخم حجمًا وأوضح رؤية؛ كما أن العام الكبيس الذى طال الشوق إليه بدأ فى يوم سبت، وهو عينه الذى أخبر محمدُ صهره عليًا أن ربنا سيرسل فيه الغوث لعائلته. وعلى ذلك فلم يتبق أمامهم ما ينتظرونه سوى القلاقل التى أنبأت بها التكهنات. أما المخاوف والكروب فهى حاضرةٌ الآن. وبالنظر

(*) عن أرطاة بن المنذر قال: "يأجوج ومأجوج على ثلاثة أثلاث: ثلث على طول الأرز، وثلث مربع طوله وعرضه واحد وهم أشد، وثلث يفترش إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى". تذكرة القرطبى (٧٨١-٧٨٢). (المترجمة).

إلى الخلافات والشقاق حول شئون العقيدة بين المسلمين والمسيحيين، وتلك القائمة بين المسيحيين أنفسهم، فعدّوها علامة أكيدة على قرب التوصل إلى خلاصهم؛ لذا فإنهم إذا ما تحمسوا إلى حمل السلاح، فعليهم أن يوقنوا أن ملوك الشرق والغرب سيهرعون لنجدتهم من فورهم؛ وأن فرج بن فرج وداود والبقية مستعدون للتوجه لأولئك الملوك بأنفسهم لطلب مساعدتهم.

وكان هناك آخرون ممن قصوا عليهم آلاف الحماقات - المبنية على علم التنجيم والنبوءات - فزعموا أنهم شاهدوا في أثناء الليل علامات في الهواء وفي البحر والبر: كرؤية نجوم لم تُرَ قط من قبل، واشتعال السماء باللهب وقدر كبير من البريق، مما أدى لظهور أجرام في الهواء، وأيضًا أشعة مروعة لعدد من النجوم والمذنّبات؛ وكلها أمور تُسفر دائمًا عن تقلبات مزاجية. وهكذا على ضوء الفهم المغلوط والمُحَرَّف لكل تلك العوامل، إضافةً إلى الاعتداد بعلامات أخرى - وهو أمر درجت تلك الأمة على القيام به بكثرة - فقد تأكد لهم أن كرباتهم قد انتهت، وأن المسيحيين باتوا يخشون انقضاء سعادتهم ؛ خاصةً بالنظر إلى انشغال ملكهم الشديد بالحرب ضد اللوثريين(*) على حيازة الممالك التابعة لهم، وكذلك قتاله لأمم أخرى ذات نفوذ لا يقوى على إخضاعها. شرع أولئك الملحدون في الترويج لتلك الأمور كلها، فحازوا على ثقة العامة من خلال الإيعاز لهم بتلك الأسرار. وكانت جهودهم لإثبات صحة تلك الإشارات ذات فاعلية كبيرة، حتى أنهم هم أنفسهم - الذين قاموا بحياكتها - آمنوا بها، وأيقنوا بتحققها على النحو الذي ساقوه.

(*) مارتن لوثر (١٤٨٣-١٥٤٦) مصلح ديني ولد في ألمانيا. بدأ عمله الإصلاحي بعد زيارة قام بها إلى روما في ١٥١٠-١١، هاله فيها ما شاهده من عمليات بيع لصكوك الغفران. له العديد من المؤلفات التي أثارت جدلاً واسعًا، طُلِبَ منه بعدها أن يمثل أمام البابا في روما ولكنه رفض وأخذ في نقد النظام البابوي بشكل علني، حتى انتهى به الأمر إلى إنشاء مذهب خاص به. تُعد ترجمة الإنجيل التي قام بها من روائع الأدب الألماني. (المترجمة).

الفصل الرابع

كيف تم تنبيه غرناطة أن موريسكيي البشرات ينوون القيام بثورة، والاستعدادات التي اتُّخِذَت لمجابهتها

إذا كان موريسكيو البيّازين قد حاولوا التعبير عن حنقهم من تنفيذ المرسوم الجديد في ذل وخضوع، حيث تملّكهم غضب عارم من البنود المتعلقة بطائفتهم، والممتلكات، ونمط الحياة، والحاجة للترويح عن أنفسهم؛ فإن ذلك لم يثنهم عن محاولة اللجوء إلى سبل أخرى. فلمّا أخذوا يبحثون عن علاج للأمر وسط الأخطار الكبيرة المحدقة بهم، ارتأوا أن يحاولوا حمل موريسكيي البشرات على الثورة، ومن أجل حثهم على تنفيذ ذلك أفهموهم أنه السبيل الذي أوحى به الله إليهم حتى يظفروا بحريتهم، وأثاروا حماسهم عن طريق الخيالات الواهية التي وردت في النبوءات كما بالغوا في إشعارهم بالذل والمهانة التي يلاقونها، وكذلك تذكيرهم بمدى قوتهم، فأخبروهم أنه يوجد خمسة وثمانون ألف بيت موريسكي مقيد لدفع الضرائب في مملكة غرناطة، هذا إلى جانب خمسة عشر ألف بيت آخرين لا يعلنها موظفو الإحصاء؛ يمكن أن يخرج منها على الأقل مائة ألف مقاتل، وأن في مقدورهم تعديل الوضع في إسبانيا إذا ما دعت الحاجة لذلك. أو تحقيق ما يصبون إليه جميعًا على أقل تقدير، ألا وهو وقف العمل بالمرسوم بالطرق السلمية.

وهكذا أخذ أولئك الملحدون يبثون إليهم كل تلك الأشياء، وغيرها الكثير، لإقناعهم أن يكونوا البادئين بالثورة؛ فما سعى إليه موسرو البيّازين لم يكن إشعال ثورة عامة،

أو جلب البربر إلى البلاد، ولم يكونوا يريدون الخضوع إلى حكم ملك مسلم - حيث لم يحسن إليهم أى منهم بقدر مليكهم الحالى - كانوا يهدفون فحسب إلى الإبقاء على وضعهم الراهن، والوصول إلى بغيتهم على أن يتحمل المخاطر أناس غرباء، وقد ألفوا حماسة رجال الجبل الهمجيين مواتيةً لتحقيق هدفهم. فما برحوا يفهمونهم أنهم جميعًا سيثورون لاحقًا، وأنه لن تبقى مدينة أو قرية فى مملكة غرناطة إلا وتشارك فى الثورة. بيد أنهم قاموا بذلك بتحفظٍ شديد، خوفًا من افتضاح أمرهم؛ لأنهم تصوروا السجن والتعذيب والعقوبات الجسدية الشديدة والخفية التى يمارسها مأمورو الجرائم فى المحكمة الملكية، والتى لا مفر من تعرضهم لها. لهذا السبب لم يجرؤ أى رجل عاقل على إعلان الأمر أو تقدم المسيرة، رغمًا عن معاونة نفر من الأشخاص البارزين والأثرياء لهم، فيما عدا فرج بن فرج الذى حمل الأمر على عاتقه، وأعلن استياءه من رجال الشرطة. وقد سُرّ البقية لذلك، فهو رجل مهيأ لتحمل أى فتنة أو إساءة، ويفوق سواه فى الحرص والاجتهاد. فكان هو المحرك الرئيس للأمر برمته، وقام - بما له من علاقات فى سائر أرجاء المملكة - بعرض الأمرعلى من يعلم بامتعاضهم العارم من المرسوم ، خاصةً السيد إيرناندو الصغير Hernando el Zaguer - حاكم كاديار -Cádiar الذى يلقب أيضًا بابن جوهر Aben Jouhar . وكذلك دييغو لوبيث ابن عبو Diego Lopez Aben Aboo، الذى يسكن ميثينا دى بومبارون -Mecina de Bombaron؛ وميغيل دى روخاس Miguel de Rojas، القاطن بأوخيخار دى ألباثيتى Ugíjar de Albacete؛ وآخرين غيرهم من الموريسكيين البارزين فى البشرات، ممن تلاحقهم دعاوى جنائية فى غرناطة. وقد وافقوه جميعًا فى الرأى، واتفقوا على اشعال الثورة يوم خميس العهد لعام ١٥٦٨؛ لأن المسيحيين لن يأخذوا حذرهم فى ذاك اليوم، وسينشغلون بطقوسهم الدينية؛ لذا فمن الممكن تنفيذ أى شيء على نحوٍ مرضٍ.

فيما بعد ذاع الخبر من شخص إلى آخر متنقلاً بين القرى، وبدأ أناس يفدون إلى غرناطة ليستعلموا من مدبرى الأمر، وخاصةً فرج بن فرج، عما يتعين عليهم القيام به؛ وهو بدوره لم يستبقهم لديه طويلاً لكى لا يفتضح أمرهم، وأمرهم بأن يعودوا أدراجهم

إلى بيوتهم، ويعملوا ما يعمله غيرهم من جيرانهم؛ لأن كل شيء قد تم الاتفاق عليه؛ فهم يملكون بحوزتهم السلاح، والرجال، والإمدادات من إيطاليي جنوة والأتراك ومسلمي المغرب. وقد أسفرت تلك الأنباء عن زيادة المفاسد، فشرعت مجموعات ثوار الجبل في التجوال في سائر الأرجاء حاملين أقواسهم الفولاذية دون خجل، وشاهرين الرايات، وأخذوا يُعملون القتل والنهب في أي مسيحي تصل أيديهم إليه. فلم يكن يمر يوم دون أن يُحمَل إلى مدينة غرناطة موتى عُثِر عليهم في الحقول، وجوههم مشوهة وبعضهم نُزِعَت قلوبهم بعد شق ظهورهم. قام بعض رجال الدين والأشخاص البارزين بتنبيه جلالة الملك و نفر ممن يسدون إليه النصح إلى القلاقل التي سيثيرها أولئك الأشخاص وما يرسلون من علامات واضحة حول نيتهم في إشعال ثورة، لكن لم يكن هناك من يعلم كيفية نشوبها أو توقيت القيام بها أو السبيل إلى معالجة ذاك الوضع، لأن الطريقة الوحيدة كانت تتمثل في ايقاف تنفيذ المرسوم الذي أفتى الجميع بقدسيته ونفعه. أما فرانثيسكو دي توريَخوس Francisco de Torrejos الكاهن القانوني لداريّكال Darrícal، والذي كان يشغل في الوقت ذاته منصب قاض كنسي لمدن بيرخا وداليّاس Dalías والساحل Cehel، ثم أضحى فيما بعد كاهنًا قانونيًا بكاتدرائية غرناطة، فكان التحذير الذي أطلقه أفضل وأصح ما يكون، وقدرته على القيام بذلك على نحو جيد تنبع من فصاحته في اللغة العربية، حيث أتاحت له تلك المقدرة وغيرها من الاعتبارات الأخرى، اكتساب صداقة المسلمين واحترامهم. فلمّا أنبأه نفر من صحبه بالنية التي بيتوها فيما بينهم لإنفاذها مع نهاية عام ١٥٦٨، كتب الكاهن إلى رئيس أساقفة غرناطة وكذلك ماركيز مونديخار - وكان لا يزال في البلاط - وحذرهم من أنه علم على سبيل اليقين أن موريسكيي البشرات عازمين على الثورة يوم خميس العهد.

في أعقاب ذلك بعث رئيس الأساقفة نبأ الثورة ورسالة الكاهن القانوني توريَخوس إلى صاحب الجلالة، حتى ينظر في كيفية معالجتها على وجه السرعة؛ وهو ما أسفر عن التعجيل بمجيء ماركيز مونديخار إلى غرناطة، وتوجيه الأمر إليه بزيارة البشرات

والساحل، والاستعلام عما قاله الكاهن تورِّيخاس على وجه الخصوص. من ناحية أخرى، أرسل كونت تنديّا، بعد تأمينه للمدينة والحصون، القائد لورينثو دى أبيلا Lo renzo de Avila على رأس رجال من المدن السبعة للتمركز فى الحمراء؛ كما قام بتهيئة سائر أهالى المدينة وتسليحهم وتنبيه هؤلاء وأولئك، حتى فطن موريسكيو البيّازين أن أهالى البشرات قد علموا بالأمر، وأثار حفيظتهم عدم قدرتهم على الاحتفاظ بالسر، ونبهوهم إلى عدم القيام بأى تحركات لأن المدينة قد أخذت حذرها.

الفصل الخامس

كيف غضب الموريسكيون بعد أن قيل إنهم يرغبون فى الثورة، وكيف تم الاحتياط للأمر.

نظرًا لأن الناس فى ميادين وشوارع مدينة غرناطة لم يعد لها شغل سوى الحديث عن نية الموريسكيين للقيام بالثورة، توجه جمع من أبرز وأغنى رجال البيّازين فى تأثر بالغ إلى منزل رئيس المحكمة، واستهل أحدهم حديثه معه على النحو التالى: " إن ما نحن فيه من ازدهار لثرواتنا فى ظل الحكم السعيد لجلالة الملك، قد انقلب خزيًا وعارًا علينا نحن من عزمنا بخبرتنا طوال عمرنا أن نحافظ على الإيمان الحقيقى، حتى أن الموت أهون علينا من التخلى عنه. ويا للأسى العميق الذى يشعر به العديد من أهالى تلك المملكة إذ لاكت الألسنة أعراضهم فى الشوارع والميادين العامة، ونعتتهم بالخائنين، وتحدثت عن رغبتهم فى الثورة على الحكم! وذلك على الرغم من كونهم رعايا مخلصين لصاحب الجلالة، وهم الآن - كدأبهم آنفًا - وديعون ومسالمون وفرحون للغاية أن تغمدهم الرب برحمته وهداهم للمعرفة الحقة بالديانة الكاثوليكية المقدسة، وأن أمّر عليهم أميرًا مسيحيًا حتى النخاع، شديد الحرص على خيرهم وخلاص أرواحهم؛ وأن يمسى المواطنون أنفسهم، عرّابوهم وأصدقاؤهم، الذين يجب عليهم الإحسان إليهم وتشجيعهم، أول من يرغب فى تدميرهم وإلحاق الخراب بهم! وهم لا يدرون ما السبيل إلى إعلامهم وإفهامهم قدر إخلاصهم ودعتهم. من أجل ذلك نعلن نحن الموجودين هنا، بالنيابة عن الأهالى، أننا - ابتغاءً لخدمة صاحب الجلالة - سوف نودع مائتين أو ثلاثمائة من أبرز رجالنا فى الحصون أو السجون التى يأمر بها، إلى أن يتم التحقق

من براعتنا، والافتراء الذى ألصقه بنا الأشرار والحاقدون، الذين لا يرغبون فى تحقيق الاستقرار بقدر رغبتهم فى تجريدنا من ممتلكاتنا. ونظير قيامنا بذلك، فإنه من العدل أن يُقضَى بمعاقبة المشنعين ومثيرى الفضائح فى حزمٍ شديد، وذلك من أجل مصلحة الرب وصاحب الجلالة، وصولاً إلى تحقيق الهدوء المرجو والمأمول، الذى تسعون سيادتكم فى حرص بالغ إلى تحقيقه؛ ونحن نعول عليكم جل آمالنا لمعالجة الوضع".

إلى هنا ينتهى حديث الموريسكى. أما رئيس المحكمة فقد أخفى ما تلقاه من تحذير حول الأمر، وأجابه أن ما قاله حول انتشار خبر نية الموريسكيين فى القيام بالثورة وإثارة القلاقل فى المدينة أمرٌ صحيح، بيد أنه يدرك فى الوقت ذاته أن الباعث وراء ذلك هم مجموعة من ثوار الجبل والرجال الوضعاء، الذين يرغبون فى اغتنام تلك الفرص لبسط نفوذهم على ممتلكات الغير. أما بالنسبة إليه هو، فإنه على قناعة من أن أهل البيّازين لا يرتبون أمراً يخالف مصلحة صاحب الجلالة؛ لأنه يرى أنهم رجال شرفاء، ذوو عقل راجح ويدركون جيداً كيفية أداء واجبهم المنوط بهم. وأنه لا محيص من إثارة بعض الشكوك، وإن كان هو على ثقةٍ منهم، وذلك على خلفية مجىء تلك الأعداد الغفيرة من الموريسكيين الغرباء إلى البيّازين، فى صحبة نسائهم وأبنائهم، مخلفين وراءهم أعمالهم وجنى حقولهم؛ وكذا العثور على كمٍ من الأقواس الفولاذية فى حوزة نفر من القوّاسين، والتحقق إذا ما كانت معدّة للموريسكيين، كما يمكن أن تكون قد صُنِعَت لثوار الجبل. وأخيراً، أنهى حديثه بإخبارهم أنه لا داعى لتقديم رعايا صاحب الجلالة أنفسهم لإيداعهم فى السجون كرهائن، وسوف تُتَخَذ تلك الخطوة إذا ما دعت مصلحة الملك إلى ذلك؛ وعليهم تقديم التماساتهم، وليطلبوا فيها ما يرونه مؤائماً لهم، لكى يتولى إبلاغه إلى المجلس، الذى سيأخذ على عاتقه تنفيذ أحكام العدالة.

عقب مغادرة الموريسكيين المنزل قاصدين المجلس، أمر رئيس المحكمة باستدعاء مأمورى الجرائم فى المحكمة الملكية، واتفق معهم أن تنفيذ عدد من أحكام السجن

سيكون من شأنه توقيف أولئك الأشخاص، ونبههم إلى العرض الذى قدموه؛ ثم أمرهم أن يكلفوا الكتبة باستخراج كل الدعاوى القائمة ضد الموريسكيين، سواء كانوا مجرمين أو متواطئين، ويشرعوا فى اعتقالهم شيئًا فشيئًا، حتى لا يُفهَم أن الداعى وراء الأمر هو مسألة الثورة. وبهذه الطريقة تمكن المأمورون من اعتقال العديد من الرجال موضع الشبهات، وكان بينهم نفر من أثرى الأثرياء، ممن انقلب عليهم الرخاء خزيًا وعارًا، وحصد الموت نواصيهم فى عجالة، كما سيأتى ذكره فى موضعه. وكذلك فقد قضى بتشكيل مأمورى الجرائم فى المحكمة الملكية للجنةٍ لمصادرة البنادق والأقواس الفولاذية من الموريسكيين حاملى تصاريح اقتناء الأسلحة، ليضحى مفهوم السلاح مقتصرًا فحسب على سيفٍ وخنجرٍ وحربةٍ يحملونها عند خروجهم إلى الحقول، وذلك بمقتضى مرسوم أمر الإمبراطور كارلوس بتطبيقه عليهم. وبعد أن حملهم على مصادرتها، عاد وأمرهم بتسليمها بكفالة، وقد نجم عن ذلك غبن للعديد من الأشخاص الذين مُنِحوا تلك التصاريح فى مقابل خدمات كانوا قد أدوها هم وآباؤهم.

الفصل السادس

الكلمة التى ألقاها كونت تينديًا على مسامع الموريسكيين خلال تلك الأيام

على ضوء الأوضاع التى آلت إليها الأمور، ومع إدراك كونت تينديًا أن إقناعه للموريسكيين والنصح لهم حتى يتقبلوا المرسوم بسعة صدر، ويلتزمون بتطبيق ما ورد به على النحو الأكمل، دون إثارة للقلاقل أو افتعال فضائح، يُعَد بمثابة إسداء خدمة جليلة لجلالة الملك؛ فقد صعد إلى حى البيّازين صبيحة يوم الأحد الموافق الخامس من إبريل، يرافقه بعض الفرسان ونفر من حرسه، لحضور القداس المقام فى كنيسة سان سلبادور، الذى كان يحضره الغالبية العظمى من الموريسكيين. وبعد أن فرغ القسيس من المراسم، أمره الكونت أن يطلب من الحاضرين البقاء فى أماكنهم لأنه يود التحدث إليهم. فلمّا أعاره الجميع انتباههم، شرع يكلمهم من قاعدة المذبح على النحو التالى: "ما أفعله الآن هو أمر قمت به العديد من المرات، ألا وهو القدوم إليكم لرؤيتكم؛ إذا كنت قد تخلفت عن زيارتكم لبضع سنين، فقد كان السبب هو أنكم كذلك لم ترتادوا منزل سيدى الماركيز أو منزلى كدأبكم من قبل، لذا فقد ارتأينا ترككم وشؤونكم. لكن على ضوء المودة والحب اللذين أكنهما لكم أسلافنا وما أشعر به أنا نحوكم، فقد رأيت أن أحضر إليكم لأحدثكم فى أمور ثلاث: أولها أن أطلب منكم وأرجوكم أن تعقدوا العزم على الالتزام بالمرسوم الذى أمركم جلالة الملك بتنفيذه، وتطبيق بنوده، فالحمية التى دفعته إلى إصداره تنبع من خيريته كأمير كاثوليكى بلغ تدينه الذروة، ورغبته فى دمجكم مع بقية رعاياه من المسيحيين، والإفادة منكم فى شتى المجالات، وكذا منحكم سائر الامتيازات التى يحصلون عليها. وثانيها هو مجىء أعداد غفيرة من

الموريسكيين الغرباء إلى القرى وهم يعيشون هنا فى البيّازين، على الرغم من أنكم قد أُمِرتم بطردهم، فأنتم لم تنصاعوا للأمر، مما ولّد عدداً من الشكوك. نحن نعلم جيداً أنهم أتوا هرباً من سوء المعاملة التى قد تعرضوا لها، وخوفًا من قدوم مقاتلين عن طريق البحر لينزلوا بمنازلهم، لكن رغمًا عن ذلك فإنه شأن يدفع الناس إلى التساؤل والكلام؛ من هنا باتت عودتهم إلى ديارهم وعدم إيوائهم أمراً مواتيًا، وأنا بدورى أؤكد لكم أنه لن تساء معاملتهم. الأمر الثالث هو أن نفراً منكم كان قد صعد إلى الحمراء ليتحدث إلىّ، وأخبرتمونى أن القساوسة والكهنة القانونيين يقومون بإحصاء أولادكم وبناتكم، وأنه يُقَال إنهم ينتوون سلبكم إياهم. وأنا لم أجبكم فى ذاك الصدد لأنى لم أكن على دراية بالأمر؛ لكنى قمت بمناقشته هنا مع رئيس الأساقفة، ولكم أن تعلموا أن ما يجرى هو لنفعكم، وقد أمر به صاحب الجلالة الذى يود إيجاد مدارس يتعلم فيها الأطفال جميعًا العقيدة المسيحية واللغة القشتالية؛ لأنه بمرور السنوات الثلاث لن يُسمَح بالتحدث بالعربية. فلتتأكدوا أنه ما من هدف آخر، وقد كان حريًا بكم أن تسعوا إلى ذلك وتحاولوا القيام به، لا أن تثيروا القلاقل بشأنه. قوموا بواجبكم وما تستلزمه خدمة جلالة الملك، وسوف ينعم عليكم بالكثير من العطايا؛ أما بالنسبة إلىّ فستضحى لكم حظوة عندى وفى أملاكى، وهو ما ستشهدونه عمليًا إذا ما لبيتم ندائى".

بعد أن أنهى حديثه، نهض رجالات الموريسكيون البارزون وقالوا لخورخى دى بايثا - الذى ينوب عنهم - أن يرد باسمهم جميعًا، فقام ذاك الرجل ليخبر الكونت أنه باسم أبناء المملكة يقبل يديه لدوام ما أظهر من عطف ومنة تجاههم، وهم يأملون أن يستمر نواله فى شتى المواقف التى تتعرض لها الأمة، كما أنهم بدورهم سيسعون دائمًا إلى الفوز برضاه كلما دعت الحاجة إلى ذلك؛ لذا فهم يتضرعون إليه أن يشفق عليهم ويتولى شؤونهم جميعًا. وهكذا فقد ارتأى كونت تينديًا هذه المرة - بوصفه القائد العام - وضع كتيبة من المشاة تتولى حراسة البيّازين، على أن تقيم فى منازل الموريسكيين، وذلك بغرض حمايتهم والتثبت من ولائهم. فلمّا أتى القائد غارنيكا Garnica ورجاله للقيام بتلك المهمة، هرع الموريسكيون إلى الرئيس والمأمور القضائى

لاخبارهما أن إقامة الجنود في المنازل التي تؤوي بين جنباتها نساءهم وبناتهم سيسفر لا محالة عن الحاق ضررٍ بالغٍ بالبيّازين. فبعث الرئيس إلى القائد يعلمه أن ذاك الأمر لا يعود بالنفع على صاحب الجلالة، وعليه أن يأمر بتأجيله لأنه سيقود أولئك الناس إلى القيام بالثورة. وهكذا أُوقِفَ تنفيذه وأُمرالقائد غارنيكا بالتوجه إلى قرية شوريّانا Churriana – التي تقع في مرج غرناطة – للإقامة بها، وقد ظل هناك حتى عشية عيد القيامة، حينها صدر إليه الأمر بصرف الجنود.

الفصل السابع

كيف دق الناقوس فى غرناطة عشية عيد القيامة، على خلفية الاعتقاد فى قيام الثورة فى البيّازين، والفوضى التى عمت المدينة آنذاك.

فى السادس عشر من شهر إبريل عام ١٥٦٨،الموافق عشية عيد القيامة، قُرِعَ الناقوس فى حصن الحمراء ما بين الساعة الثامنة والتاسعة من مساء تلك الليلة، وربما كان ذاك الأمر هو السبب الذى دفع المسيحيون إلى الشروع فى نهب البيّازين وقتل من كان به من الموريسكيين؛ حيث حملتهم الشكوك التى كانت تراودهم آنفًا على الاعتقاد فى اندلاع الثورة. أما الداعى إلى قرع ذاك الناقوس فهو أن أحد الأفراد القائمين على دوريات الحراسة – يدعى بارتولومى دى سانتا ماريا Bartolomé de Santa María - كان قد بعث أربعة من الجنود لتسلم نوبة حراسة برج الزيتون Aceituno؛ وكان كل واحدٍ منهم يحمل فى يده غصن حلفاء مشتعل لينير له الطريق؛ لأن الظلام كان حالكًا ويصحبه هطول المطر، وعندما وصلوا أسفل البرج، الذى كان الطريق الصاعد إليه وعرًا ومكشوفًا، أخذ جنديا المقدمة فى تقليب الجذوات وتحريكها لإضاءة الطريق لزميليهما الصاعدين، ثم ألقياها فيما بعد إلى الأسفل بأسلوب بدا لمن يراه شبيهًا بحركة النيران التى تُشعَل فى الحصون والأبراج للإنذار بقدوم العدو.

لمّا رأى حارس برج حصن الحمراء ذلك بادر بدق الناقوس، حيث ظن أنه قد جدّ خطب ما، وسارع بإخبار كونت تينديًا بالأمر، الذى قام بدوره بإرسال عشرين جنديًا لمعرفة كنه تلك النيران. أما حارس البرج الذى كان قد قرع الناقوس فشرع يصيح بصوتٍ عالٍ مناديًا: "أيها المسيحيون، انتبهوا واحذروا، فسوف تُذبَحون الليلة لا محالة".

فأسفرت صيحاته عن خلق حالة من الارتباك الشديد وانتشرت القلاقل فى المدينة، حتى أن السيدات المتزوجات والفتيات غادرن بيوتهن، وهرول بعضهن إلى الكنائس بينما توجه البعض الآخر صوب البرج. أما الرجال المرتاعون فقد خرجوا إلى الشوارع والميادين، حيث حمل بعضهم البنادق والأقواس الفولاذية بينما توشح آخرون بالأثواب الطويلة والجبات المزررة. لم يدر أحد ما الخبر أو إلى أين المفر: كان الجميع يموج فى بحر من الاضطراب، فى نهاية الأمر نشبت الثورة فى شتى أنحاء المدينة، حتى أن رهبان دير القديس فرانثيسكو غادروا صوامعهم وخرجوا إلى الميدان شاهرين أسلحتهم. قصد أناس آخرون الميدان الجديد **Nueva plaza**، حيث شكّلوا أمام المحكمة كتيبة من الرجال المسلحين بالرماح ورؤوس الفؤوس بوصفهم جنداً للمسيح، حيث كانوا يظنون أن الموريسكيين قد دبروا انقلاباً.

أما رئيس المحكمة والمأمور القضائى فقد أرسل كل منهما على حدة من يستعلم عن أنباء ما يدور داخل البيّازين من أطقم الحراسة المكلفة بحمايتها، وعندما تنامى إلى علمهما أن الأمر مرده إلى غفلة أولئك الحراس وتهاونهم، وأن الهدوء والسلام يعمان أرجاء المدينة، تبددت مخاوفهما. وقام المأمور القضائى بسد مداخل الطرق المؤدية إلى منازل الموريسكيين، ونصّب عليها نفراً من الفرسان لكى يمنعوا أى شخص من العبور إليها للحيلولة دون سلب محتويات المنازل . لم يكن ذلك الإجراء ليجدى كثيراً لولا أن زوبعة عارمة أعقبها سيل عارم من الأمطار أعاقت مسيرة المواطنين الحانقين. ففى دقائق معدودة غمرت الجداول شوارع المدينة حتى تعذر عبورها على صهوة الجياد، وأمسى من اللازم تهدئة غضب العامة. فى أعقاب العاصفة صعد المأمور القضائى إلى البيّازين وبصحبته جمع من الفرسان، بعد أن خلّف وراءه بعضاً منهم لتولى حراسة المعابر، حيث قضى ما تبقى من الليل وهو يطوف بأنحائها . عندما انبلج ضوء النهار شرع يتفحص سائر الأسوار من الجهة الخارجية وصولاً إلى تلك المشرفة على نهر حدرّة، فلمّا تبين له أنها جميعًا آمنة نزل إلى المدينة. ومنذ تلك الليلة كان يجوب الأرجاء فى كل مساء ومعه عدد من الرجال المسلحين، لكى لا يلحق

الموريسكيين أى أذى وحتى يأمن جانبهم فى الوقت عينه. على الرغم من أن الانذار الذى سرى فى تلك الليلة كان كاذبًا، فإنه لم يخلف وراءه آثارًا طفيفة، حيث أخذ المواطنون يعدون العدة أفضل من ذى قبل، من لم يكن لديه أسلحةٌ تزود بها، واشترى المجمع الديرانى كميات كبيرة من السلاح ثم قام بتوزيعها على المواطنين، وجعلهم يجلبون مزيداً من الأسلحة من الخارج. اضطلع الجنود العشرون الذين أرسلهم كونت تينديّا بدوريات الحراسة فى الحمراء بدلاً من برج الزيتون، وقد حُبِسوا هناك حتى قدوم ماركيز مونديخار إلى المحكمة، حيث أمر بإطلاق سراحهم جميعًا بعد أن فهم حقيقة الأمر.

الفصل الثامن

مجيء ماركيز مونديخار إلى غرناطة، وذهاب السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس إلى جلالة الملك لإخباره بأحوال تلك المملكة.

وصل ماركيز مونديخار إلى غرناطة فى السابع عشر من شهر إبريل قادمًا من العاصمة، وفى اليوم التالى اجتمع رجال الموريسكيين البارزون من أبناء البيّازين بالنائب العام لمحكمتهم، وصعدوا إلى حصن الحمراء ليرحبوا بقدومه، ورفعوا إليه شكاوى عريضة قائلين أن أمرًا صغيرًا مثل قرع الناقوس الذى حدث، أسفر عن تعريضهم إلى ظروف أوشكت على القضاء عليهم، على الرغم من أن الأهالى يتسمون جميعًا بالوداعة والمسالمة. وفى ختام حديثهم تضرعوا إليه حتى يشملهم بعطفه وحظوته، كما كان العهد دائمًا مع أسلافه سيادة الماركيز لويس وسيادة الكونت إنييغو. أظهر الماركيز تعاطفه معهم وأسفه العميق لما لاقوه فى غيابه، ووعدهم أن يولى شئونهم عنايةً خاصةً ويحاول عدم تعرّضهم لأى ضير.

بدا الموريسكيون وكأنهم قد سكنوا بعض الشىء بعد قدوم ماركيز مونديخار، أما السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس – الذى أسلفنا ذكره فى الفصل السادس عشر من الكتاب الأول – فقد ارتأى الذهاب لإخبار جلالة الملك وكذا أعضاء المجلس الملكى بشئون تلك المملكة، مدفوعًا بحميته المسيحية ومتبعًا بذلك الأمثلة المشرفة التى ضربها أسلافه الذين أظهروا الولاء فى خدمتهم لملوك قشتالة منذ اليوم الذى اعتنقوا فيه عقيدتنا الكاثوليكية المقدسة. حيث أخذ الموريسكيون يشكون من سوء المعاملة التى كانوا يتعرضون لها كل يومٍ بالأقوال والأفعال، وقلة الإجراءات المعمول بها لمجابهة ذاك

الأمر، وكيف أن أصحاب النفوس السيئة والحانقين - وعددهم ليس بالقليل - يفتون في عضد الأناس المسالمين ويتجاسرون عليهم. وهكذا انطلق مغادرًا غرناطة في اليوم الرابع والعشرين من شهر إبريل ، دون الافصاح عن نيته إلى أي شخص يمكنه التدخل لمنعه، وذلك على خلفية اعتقاده بإمكانية التوصل إلى الحل الذي يأمل الجميع في تحقيقه في البيّازين، مع تعيين القائد العام الجديد الذي كان يشغل المنصب آنذاك؛ ليصل إلى مدينة مدريد في أول أيام شهر مايو. أثناء اضطلاعه بتلك المهمة وصل إليه بريد من موريسكيي البيّازين، يحوي رسالةً موجهةً إلى صاحب الجلالة باسم جميع أهالي تلك المملكة، ويبدو أن السيد ألونسو لم يكن يرغب في حملها معه، أو أن الموريسكيين لم يجرؤوا على إعطائه إياها إبان مغادرته المملكة حتى لا تصل أنباء الغرض من رحلته إلى آذان أي من الجواسيس[١٢].

كان فحوى الرسالة هو إبلاغ جلالة الملك بأن الموريسكيين لم يكن لهم أي دور أو مشاركة في إثارة الفوضى والقلاقل التي عمت تلك المدينة آنفًا، وأنها لا تتجاوز كونها نتاج غفلة الحكام ورجال العدالة، وتهاونهم الذي كان قاب قوسين أو أدنى من تدميرالموريسكيين والقضاء على حياتهم وممتلكاتهم. والأسوأ من ذلك أن الشعب قد نعتهم بالكفر بديانة المسيح، وخيانة الملك، كما تم نشر خيالاتٍ حولهم تسيء إلى سمعتهم. إذا ما تبين أن بعضهم كان مخطئًا، فمن العدل أن يأمر جلالة الملك باللجوء إلى الشدة إبان معاقبتهم، وهو ما تتطلبه فداحة الجرم الذي ارتكبوه؛ لكن حين يتضح أنهم لا يحملون تبعته على عاتقهم، فإن قرار جلالة الملك بمعاقبة المذنبين سيكون أمرًا مواتيًا، لتضحي الأمور في المستقبل معدةً بصورة تتماشى أكثر مع خدمة صالح المملكة، وبذلك يمنع وقوع أحداث مشابهة. مع شعور الموريسكيين بالظلم وخوفهم من القسوة التي يمكن اللجوء إليها عند التعامل معهم، لم يجرؤوا على الاجتماع معًا

(١٢) المؤلف يناقض نفسه هنا، فإذا كان الموريسكيون لا يريدون إعطاء الرسالة للسيد لويس، فلماذا أرسلوها إليه مع البريد؟. هل لنا أن نظن أن نص الرسالة من بنات أفكار المؤلف؟ (المراجع) .

لمحاولة التوصل إلى طريقة لمعالجة الموقف. أما الآن فيبدو أن الأمور قد هدأت بعض الشيء مع وصول ماركيز مونديخار، الذى أكد لهم إمكانية اللجوء إلى سيدهم ومليكهم، والتضرع إليه حتى يأمر بمعالجة تلك الأمور بعدل وإنصاف. ونظراً لعدم قدرتهم على المجيء جميعًا فقد أرسلوا من يتولى إيصال الرسالة، حيث حُمِلَت على وجه الخصوص إلى السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس لينوب عنهم فى ذاك الشأن، وهم جميعًا ملتزمون بالاعتراف بفضله فى شتى المناحي، وذلك للقدرة والمكانة التى يتسم بها والتى تمتع بها أسلافه. لذا فهم يتوسلون إلى جلالة الملك فى خضوع حتى يستمع إلى حديثه ويصدق ما يقول، ثم يأمر بالكشف عن حقيقة الأمر ويقضى بكيفية معاقبة المذنبين، كما يعيد إلى الأخيار والمخلصين شرفهم الضائع وسيرتهم الطيبة، ويرفع المظالم عمن يعانون منها.

إلى هنا تنتهى الرسالة التى سلمها السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس إلى جلالة الملك[١٣]، كما أنه استرسل فى إخبار صاحب الجلالة عن ذاك الشأن. بعدها تمت إحالته إلى الكاردينال إسبينوسا Espinosa، الواعظ بالمجلس الملكى، وقد اتفقا فيما بينهما على الاستغناء عن الدوريات المكلفة بحراسة البيّازين، وكان الموريسكيون مكلفين بالإنفاق عليها، لأنهم فيما يبدو أناس مسالمون؛ أما باقى الأمور فيتم الرجوع إلى رئيس محكمة غرناطة للبت فيها لأنه مكلفٌ بذاك الأمر، وسوف يقرر هو كيفية رفع المظالم عنهم. أعقب ذلك بوقت قصير صدور قرارات بصرف عدد من حكام البيّازين من الخدمة وكذا تسريح جنود الحراسة هناك، ويبدو أن الأوامر كان مرجعها المجلس الملكى وبعض مأمورى هيئة المحكمة الملكية ونفر من الأشخاص رفيعى القدر، لأن سيادة رئيس المحكمة بدرو دى ديثا رفع الأمر إلى نظر جلالة الملك وأخبره أنه ليس من المناسب إحداث نظام جديد، وأن الإبقاء على اضطلاع الحكام بدوريات

(١٣) مرة أخرى يناقض مارمول نفسه فى شأن الرسالة، فإذا كان لم يحملها معه أصلاً لسبب أو لآخر، فكيف يسلمها إلى الملك؟ (المراجع).

الحراسة أمر بالغ الضرورة، فهم رجال شرفاء ومتزوجون. وقيامهم بالحراسة في كل ليلة دفع الأهالي إلى التحلي بالهدوء، كذلك فقد نجم عن تلك النوبات العديد من الآثار الجيدة التي أثبتتها التجربة : حيث غادر الثوار الجبليون والمجرمون من أهالي البيّازين تلك الأنحاء، ولم يعد الغرباء يأوون إليها، ومن كانوا يقومون باستضافتهم تم الكشف عن هويتهم وإلقاء القبض عليهم. أما ملاك المواشي فهم سعداء للغاية لأنه لم يعد هناك من يقوم بسرقتها. كما أن السيدات المتزوجات - اللاتي كن على خلاف مع أزواجهن - استعدن أزواجهن من جديد، وكذلك فقد لمّ الآباء شمل أبنائهم، وأوى الأسياد إليهم عبيدهم. لم يعد ممكنًا رؤية أي شخص في البيّازين بعد حلول الليل، وقد توقف إلقاء الحجارة على نوافذ القساوسة. أما المخمورون، وكانوا موجودين قبل ذلك الأمر بأعداد غفيرة، وتسببوا في إثارة اضطرابات هائلة وافتعال جرائم عديدة في أثناء الليل، فقد امتنعوا عن ذلك. والجميع ينتابه خوف عارم من الحراس، فأضحوا كلهم مسالمين يتسمون بالدعة، لا يجرؤ أي منهم على التحرك من موضعه.

إلى جانب ذلك، فإن أولئك الحراس هم القائمون على تطبيق المرسوم، فيما يتعلق بتنفيذ البنود الواجبة والتي تتمثل في: كشف النساء عن وجوههن أثناء سيرهن في الطرقات، وفتح أبواب منازلهن أيام الجمع وفي أثناء العطلات. وهم يقومون بذلك بمودةٍ وحميةٍ مسيحيةٍ مجردةٍ من أي غرضٍ أو رغبةٍ في مضايقة الغير. وكذلك فإن باقي الحكام لا يخطون خطوةً إلا إذا كان الهدف من ورائها جلب المنفعة. قديمًا كان هناك مدعاة لتقديم الشكاوى، إلى جانب الوسيلة الخاطئة المتبعة لسجن الأفراد وتحصيل النفقات. لكن في أعقاب اضطلاع تلك الدوريات بالحراسة لم يعد هناك بلاغاتٍ عن أطفالٍ مفقودين أو مخطوفين كما كان الحال آنفًا؛ لأن الناس لم تمسِ قادرةً على إخفاء الأطفال داخل البيّازين خوفًا من افتضاح أمرهم. من أجل هذه الأسباب وغيرها الكثير مما يمكن التطرق إليه، فإن عدم استحداث أمور جديدة والتكرم بالسماح باستكمال ما تم البدء فيه سيضحى أمرًا مواتيًا. في النهاية اتُخِذَ القرار بالتغاضي عن مسألة الحكام، مع خفض عدد الأفراد المصاحبين لهم في جولاتهم.

الفصل التاسع

كيف أن ذهاب ماركيز مونديخار لزيارة الساحل أظهر بشكلٍ أوضح مدى اضطراب الموريسكيين، وذلك من خلال بضع رسائل تمت مصادرتها من داود، وهو أحد الرؤوس المدبرة للثورة، كان فى طريقه للحصول على الدعم من بلاد المغرب.

فى تلك الأثناء غادر ماركيز مونديخار غرناطة مصطحبًا معه ولده كونت تينديًا من أجل زيارة ساحل البحر وتفقد المكان مع بعض الفرسان. يبدو أن الرؤوس المدبرة للثورة قد اتفقت على أن توجه ابن داود صوب بلاد المغرب فى أثناء تلك الزيارة سيكون مواتيًا، حيث يسعى ذاك الأخير للحصول على بعض الإمدادات من السفن والمقاتلين، وهو أمر طالما عرض القيام به. فذهب يرافقه موريسكيون آخرون من البيّازين للانضمام إلى كتائب الثوار الجبليين التى تجوب جبال بوخول Bujol، فى المنطقة الواقعة باتجاه البحر ما بين أورخيبا وزوتشيل Zuchel، فى انتظار عبور أى قارب يمكنهم أن يستقلوه للوصول إلى بغيتهم. عندما تبين له عدم وجود أية قوارب، اتفق مع صياد موريسكى من أهالى أدرا القديمة Adra la Vieja يدعى نُحْيلة Nohayla، لكى يبيعه مركبًا له على الشاطىء كان يستخدمه فى الصيد، كان ملكًا لرجل من أصحاب مراكب الصيد اسمه خينيس دى لا رامبلا .Ginés de la Rambla أما نُحْيلة فإنه لم يكتف بتقديم المركب له، بل عرض عليه الذهاب معه.

فى تلك الأثناء قام أفراد تلك الكتائب من الموريسكيين بأسر ثلاثة من المسيحيين، وكانوا يودون الإجهاز عليهم، بيد أن داود دافع عنهم، وأقنعهم أن عقيدة محمد لا تقر

قتل المسيحيين إبان استسلامهم؛ لكن السبب الحقيقى وراء دفاعه عنهم كان رغبته فى أن يقوم الموريسكيون بتسليمه إياهم لكى يحملهم معه إلى بلاد المغرب ويحصل على مكافأة من أحد القادة. مع حلول الليلة التى كانوا قد حددوها من قبل للإبحار، قصد داود ورفاقه منزل نُحْيلة، ثم توجهوا إلى حيث يوجد القارب على مقربة من ميناء أدرا، تصحبهم بعض الموريسكيات الراغبات فى الذهاب إلى بلاد المغرب حتى يتسنى لهن ممارسة حياة المسلمات فى حرية. وهناك أنزلوا القارب إلى المياه فى هدوءٍ شديدٍ ثم استقلوه جميعًا. أما الموريسكى الذى منحهم المركب، فقد كان خوفه من معاقبته جراء ما اقترف إذا ما افتضح أمرهم، قد دفعه إلى عقد اتفاق مزدوج – وهو أمر متعارف عليه بين المسلمين – حيث أخبر كلاً من صاحب المركب وقائد أدرا كيف أن بعض الموريسكيين قد قصدوه ليقلهم إلى بلاد المغرب، وقال لهما إنه سوف يتولى إخبارهما عن اليوم المقرر للإبحار بالمركب، لكى يهجما عليهم ويعتقلاهم؛ لكنه على الجانب الآخر لم يكن ينوى تحذيرهم فى التاريخ الصحيح للقيام بالرحلة، بل إنه أمدهم بتاريخ محدد، ثم استقل المركب هو والآخرون قبل ذلك الموعد بثلاثة أيام. وقد اصطحب معه الثوار الجبليين، والأسرى المسيحيين الثلاثة، وعدد كبير من الموريسكيات والصبية.

بيد أن المركب لم يكن آمنًا كما كان يظن الرجل، لأن خينيس دى لا رامبلا كان قد راوده الشك فى صدق الموريسكى وحيطته، لذا فقد قام فى إحدى الليالى بخرق المركب مستخدمًا بعض البريمات الكبيرة، التى غطّاها فيما بعد بطبقةٍ كبيرةٍ من الشمع. لم تمر برهة وجيزة على إبحار داود فى المركب، حين بدأ الماء فى التسرب إليها من الجوانب وعبر البريمات؛ لذا فقد اضطر داود أن يعود أدراجه إلى الشاطىء خوفًا من الغرق. حملت الضوضاء، التى أحدثتها النساء والأطفال إبان إنزالهم من المركب، الجنود – الذين كانوا على علم مسبق بالأمر – على استشعار وجودهم والخروج لملاقاتهم، حيث ألقوا القبض على رجل تركى وعدة نساء؛ كما أطلقوا سراح المسيحيين الثلاثة ومعهم كل الأشخاص الذين اختطفتهم الكتائب فى الأراضى الجبلية الوعرة.

بينما كان الثوار الجبليون يلوذون بالفرار، سقط من أحدهم كيس من القماش كان يحوى كتابًا ضخمًا مكتوبًا باللغة العربية، عُثِرَ بداخله على رسالةٍ وشكوى، بدا من فحواهما أنهما من إعداد داود نفسه، حيث ضمنهما شكاوى الموريسكيين إلى مسلمى إفريقيا، لكى ينظروا إليهم بعين العطف، ويرسلوا إليهم الغوث والمدد. لاحقًا بعث قائد أدرا ذلك الكتاب إلى ماركيز مونديخار، الذى كان فى تلك الآونة يتفقد أحوال البشرات، وأرسل معه المسيحيين الثلاثة حتى يتلوا على مسامعه ما رأوه، فقصوا على الماركيز أمر داود؛ لأنهم كانوا يعرفونه من غرناطة، حيث كان يعمل فى مجال الحرير، ثم أضافوا أنه كان بصحبة موريسكيين آخرين من أهالى البيّازين لا يعلمون أسماءهم؛ وأن الكتاب ملكٌ لداود، كان يقرأ فيه كل ليلة ويقوم بوعظ الآخرين حول تعاليم عقيدة محمد. عقب انتهاء العظة كانوا ينهضون جميعًا، ويتوجهون إلى الكتاب ثم يقبلونه مرددين عبارة: "هذه هى شريعة ربنا، التى نؤمن بها، وما عداها باطل".

عندئذ راودت الماركيز الرغبة فى معرفة كنه ذلك الكتاب، وما تحويه الأوراق المفردة التى عُثِرَ عليها بداخله، فأرسل فى طلب الأب ألونسو ديل كاستيّو(١٤) من غرناطة، لكى يوضح له فحواها؛ لأنه استشعر أن فيها معلومات يمكن أن تعاونه على استيعاب ما يدبره الموريسكيون. وهكذا توجه الأب كاستيّو تلقاء بيرخا، التى كان الماركيز قد وصل إليها لتفقد أحوالها. وهناك أخذ منه الكتاب وتصفحه، فعرف أن مؤلفه رجل عربى يدعى لويّورى Lollori، وأن الكتاب يتناول أمورًا خاصة بعقيدة محمد، وأنه يستعرض العديد من الشواهد والأسانيد حول رواياتٍ قديمة. أما الأوراق المفردة فهى مكتوبة بخط يد داود ذاته، الذى استطاع الأب ألونسو التعرف عليه لاحقًا. كان أحدها يحوى رسالةً خطيةً مكتوبةً على النحو التالى:

---

(١٤) برز من بين الموريسكيين أشخاص مثل ألونسو ديل كاستيّو وميغيل دى لونا وغيرهما، كانوا يجيدون العربية تمامًا ويترجمون عنها، وقد لعب هؤلاء دورًا بارزًا فى صياغة الكتب الرصاصية، وهى كتب تتحدث عن إمكانية الجمع بين المسيحية والإسلام. (المراجع)

الرسالة التى تم مصادرتها من داود على ساحل أدرا(١٥)

بسم الله الرحمن الرحيم. صلوات الله على أفضل عباده المصطفين. والعاقبة للمتقين الذين شرّفهم الله، فما زالوا عن الطريق المستقيم، أولئك فى الحياة الدنيا هم الفائزون. وأنا أعنى أصدقاءنا الأمراء، ومن تبعهم من السادة، ممن أنعم الله عليهم بالنصر والحرية والممالك الشاسعة، قاطنى بلاد المغرب - أدام الله مجدهم وأطال بقاءهم- نتمنى لهم نحن أهل الأندلس دوام العافية، نحن المنكوبون، من حاصرهم الكفرة، ونزل بساحتهم عذاب الهون. أما بعد، فإننا يا ساداتنا وأصدقاءنا مجبرون على إعلامكم بأحوالنا وشؤوننا، وما آل إليه مصيرنا، لمّا تبدل حالنا، وزال عزنا، وما ذاك إلا نذر يسير من بلائنا العظيم. فأغيثونا، وأحسنوا إلينا، وسوف يجزل الله لكم العطاء جزاء ما تسدون إلينا من معروف. ادعمونا بسلطانكم، وسعة ملككم الذى أفاض الله عليكم به من جوده، رغم أنكم غير مسؤولين عنا، إننا نثق فى عظمتكم وفضلكم، فالشخص الجواد المفضال يرغب دوماً فى فعل الخيرات. ونحن نسألكم بالله العظيم أن تذكرونا فى صلواتكم، حتى يجمع الله بيننا.

اعلموا يا سادتنا أن المسيحيين قد أمرونا بهجر اللغة العربية، ومن يمتنع عن التحدث بالعربية ينسى تعاليم الكتاب الذى نزل بها، كما جعلوا نساءنا يكشفن النقاب عن وجوههن الحيية، وأمرونا ألا نحيي بعضنا البعض، رغم أن إفشاء السلام من أنبل الخصال. لقد زادوا ما ندفع من ضرائب وخراج، كما حاولوا حملنا على تغيير ملبسنا والتخلى عن عاداتنا. إنهم يقيمون فى منازلنا، فيكشفون عوراتنا ويخدشون حياءنا،

---

(١٥) يبدو من مطالعة النص أنه ترجمة مختصرة للقصيدة التى أرسلها الموريسكيون إلى السلطان العثمانى بايزيد الثانى، وأوردها المقرى فى "أزهار الرياض فى أخبار عياض"، القاهرة، ١٩٣٩، المجلد الأول، ص. ١٠٨- ١١٥ وقد أعدنا نشر القصيدة فى كتاب "الموريسكيون الأندلسيون"، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢، ص. ٤١-٤٦

وهو بلاء حرى به أن يمزق نياط القلوب. وقد قاموا بكل تلك الأمور بعد أن بادروا بالاستيلاء على ممتلكاتنا، وأسرنا، وإرغامنا على مغادرة قرانا. لقد أوقعونا فى الكرب والبلاء الشديد عندما أبعدونا عن إخواننا وأصدقائنا، نحن قوم مخذولون ومعوزون، نتكل على رحمة ربنا، لفداحة ما نتعرض له من شرور ومفاسد وقلاقل تحيط بنا من كل صوبٍ وحدب. نتوسل إلى جودكم باسم الله الأعظم أن تتأملوا أحوالنا، وتنظروا إلينا بعين العطف، وتأخذكم بنا مشاعر الشفقة السائدة بين الأخوة، فالمؤمنون جميعًا أخوة فى الله. فأحسنوا إلى إخوانكم، وكونوا فى عوننا يكن الله فى عونكم؛ اقهروا من عندكم من المسيحيين، لكى ينذروا بدورهم أبناء ديانتهم، فيعلمون أنكم قادرون على تعذيبهم بهذه الطريقة، نظير المعاناة التى آلمونا بها نحن المسلمون، رغم كل ذلك فإن الصبر مفتاح الفرج.

ابعثوا كتابى هذا إلى ملك المشرق، الذى قهر الأعداء وأعلى راية الدين، ولا تدعوا مجالاً للفرقة بينكم، فالفتنة أشد من القتل، ونحن لا نمتلك نفوذًا أو قوةً أو فطنةً تتيح لنا إيجاد حلول لرأب الصدع. إننا نحيا فى خوفٍ دائم؛ أدعوا الله أن يغفر لكاتب هذه الرسالة، التى ضمّناها ما نأمل أن تتفضلوا علينا به، كتبناها فى ليالٍ قضيناها فى شجون وانهمرت فيها العبرات، يبقينا الأمل، أمل ولدته المرارة".

الورقة الأخرى مكتوبة بأوزان الشعر العربى، ويبدو أنها مرثية/رثاء يشكو فيها الموريسكيون القهر الذى يمارسه ضدهم المسيحيون، ونصها كالتالى:

بسم الله الرحمن الرحيم. أحمد الله أولاً وآخراً ودائمًا. سبحان رب الناس، سبحان أحكم الحاكمين، سبحان المتفرد فوق عباده، سبحان منزّل الكتاب الحكيم، سبحان خالق البشر، سبحان منشئ الحَزَن، سبحان من يعفو عن المسىء ويصلح، سبحان رب السموات العلى، سبحان خالق النبات والأرض، من بسطها ووطّأها الإنسان، سبحان الإله الواحد الأحد، سبحان من لم يولَد، سبحان من أمد مخلوقاته بالماء والغذاء، سبحان الرقيب، سبحان ملك الملوك، سبحان الأول الذى لا مبدئ له،

سبحان رب العرش العظيم، سبحان من يفعل ما يريد، سبحان مسبب الأسباب. سبحان خالق السحاب، سبحان منزل الكتاب، سبحان من خلق آدم وتاب عليه، سبحان ذا الجلال والإكرام خالق البشر والصالحين، من اصطفى منهم الأنبياء، وختمهم بخير المرسلين. بعد حمد الله المتفرد فى عليائه والثناء عليه، أصلى وأسلم على المختار وأتباعه الأطهار.

أبدأ فى سرد قصة تتناول أحوال أندلوثيا، التى أذلها العدو على النحو الذى ستقرؤون فى كتابى هذا، أندلوثيا التى كان اسمها علمًا فى الدنيا بأسرها، أضحت اليوم محاصرةً ومحاطةً بالكفرة الذين تربصوا بها من كل الجهات. قد صرنا تابعين لهم كما النعاج الشاردة أو الفارس الذى يمتطى فرسًا جموحًا؛ لقد أمعنوا فى تعذيبنا، وعلمونا الخدع والمكائد، حتى بات المرء يتمنى الموت للفكاك مما يلاقى. لقد أمّروا علينا اليهود، الذين لا يحفظون عهدًا ولا ذمة، فهم يخضعوننا كل يوم لصنوف جديدة من المكر والأكاذيب والغش والهوان والذل والثأر. أرغموا أهلنا على اعتناق ديانتهم، وحملوهم على عبادة الأصنام معهم، أجبروهم على القيام بذلك دون أن يجرؤ أحد أن ينبس ببنت شفة. كم من شخص منكوب بين المارقين! إنهم يدعوننا لعبادة الأصنام بقرع الناقوس، يأمرون المرء أن يسعى مهرولاً إلى طقوس عقيدتهم المنفرة، وعندما يجتمعون فى الكنيسة، ينهض واعظ ليصلى على النبيذ والخنزير بصوتٍ عابث، فيتناولون الخمر فى القداس؛ لو سمعتموهم يقولون وهو جاثون على ركبهم: "هذا هو الدين الحق" لعلمتم أن أقدس رؤساء أديرة رهبانهم لا يحسن التمييز بين الحلال والحرام.

عقب انتهاء العظة، ينهضون جميعًا ليقدمون فروض الولاء والطاعة لمن يعبدون، فيتبعون قسيسهم دون خوف أو خجل. عندئذ يعتلى رئيس دير الرهبان المذبح ويرفع رغيفًا من الخبز عاليًا حتى يراه الجميع، عندها ستسمع اللطم على الصدور ودقات الناقوس فى ختام المراسم. لديهم قداس ينشدون فيه الترانيم وآخر يقيمون فيه الصلوات، وكلاهما يشبهان رذاذ السحاب/الأمطار. كل الموجودين هناك تُقيد

أسماؤهم فى أوراق، فلا يبقى صغيرٌ ولا كبيرٌ دون ذكر اسمه(١٦) بعد مرور أربعة أشهر يأتى عدونا القسيس/رئيس دير الرهبان ليطلب سندات البراءة/الإعفاء من منازل المشتبه فى أمرهم، فيتنقل من بابٍ إلى بابٍ حاملاً في يده المداد والريشة والأوراق، ومن لا يوجد بحوزته سند البراءة يدفع عملة من الفضة. ويأخذ الأعداء بالنصيحة القائلة بأن الكل عليه أن يدفع حيًا أو ميتًا. ليكن الله فى عون من لا يجد ما يدفعه! إنهم ينهالون عليه ضربًا بالنبال والسهام! لقد حلوا عقدة الدين دون أن يكون هناك أساسٌ يستندون إليه، وهم يقدسون التماثيل رغم رجاحة عقلهم. ويصومون على مدار شهر ونصف الشهر، وصيامهم أشبه بصوم الأبقار، حيث يأكلون عندما ينتصف النهار.

لنتحدث عن قسيس الاعتراف، ثم القسيس الخاص بتناول القرابين وبهما تكتمل عقيدة الإلحاد، وهو أمر لا بد لنا من القيام به؛ لأنه كان هناك قضاة قساة يستولون على ممتلكات المسلمين، ويقصون شعورهم كما تُجَز أصواف الأغنام. وكان بينهم قساوسة وقضاة آخرون معتمدون يبطلون عمل القوانين كلها. هناك شخص يدعى أوروثكو، وشخص آخر يدعى ألبوتودو. الكل يجمعه الكد والسعى المحموم للتجسس على الناس فى كل مكان وأينما يحلون! أما من يثنى على الله بلغته الخاصة فهو هالك لا محالة، ومن يرصدون له أى زلة، يبعثون فى إثره واحد من زعمائهم، فيعثر عليه وإن كان على بعد مائة فرسخ، فيعتقله، ويزج به فى السجن الكبير، حيث يرهبونه ليلاً ونهارًا قائلين له:"تذكر" فيبيت المسكين يفكر وهو يزرف العبرات فيما يطلبون منه... وما من سلوى إلا الصبر على البلاء، ثم يُحْمَل إلى بلاطٍ مروعٍ، ويترك فيه لفترات طويلة، بعد ذلك يُفْتَح أمامه ألف حوض/صهريج/معبر/مانع لا يقوى أمهر السباحين على عبورها؛ لأنه بحر خضم لا يمكن تخطيه. ومن هناك يسوقونه إلى غرفة التعذيب،

---

(١٦) كان هذا واحداً ضمن سلسلة من الإجراءات التى تم اتخاذها عقب تنصير المسلمين قسراً فى إسبانيا، وذلك لضمان ذهابهم إلى الكنيسة. (المراجع) .

حيث يشدون وثاقه ليلقى قسطه من العذاب، ولا يزالون به حتى تتكسر عظامه. بعد كل هذا يجتمعون فى ميدان الحطّابين، حيث ينصبون منصة ليكون الأمر أشبه بيوم الحساب، ومن يستطيع الفكاك من براثنهم يلبسونه ثيابًا صفراء، أما البقية الباقية فيقذفون فى النار مع تماثيل وأشكال مروعة.

لقد أمعن هذا العدو فى إذاقتنا عذاب الهون فى كل مكان، وهو يحيط بنا كدائرة من النيران. نحن نلقى اضطهادًا لا يقوى عليه أحد. إننا نؤدى الشعائر فى الأعياد وأيام الآحاد، ونصوم أيام الجمع والسبت. لقد تنامت بذرة تلك الشرور على مرأى ومسمع قضاتهم وحكامهم، وكل منهم يطبق القانون كما يحلو له، كما أنهم قد أضافوا إليه بنودًا أخرى، وهم يشهرون سيفا مصلتا، وقد طلعوا علينا بقرارات مكتوبة فى أول أيام العام الجديد فى ميدان باب البنوت، كان من شأنها إيقاظ النيام، وإفاقتهم من غفوتهم دفعةً واحدة، حيث أمرونا بفتح أبواب البيوت جميعًا على مصارعها. لقد حرَّموا علينا ملبسنا، ومنعونا من ارتياد الحمامات وحظروا وجود العرب فى أراضينا. لقد سمحوا بحدوث كل تلك الأمور، ثم وضعونا بين أيادى اليهود، يفعلون بنا ما يشاءون، ولا يتحملون وزر أفعالهم. أما الرهبان والقساوسة فباتوا يشعرون بالسعادة لأننا أصبحنا جميعًا يحكمنا قانون واحد(*)، ليتمكنوا من سحقنا تحت أقدامهم. وهذا ما يليق بأمتنا، فكأنهم يتباهون بما يلاقون من خيانة ومظالم. هذا الحنق الذى يعتمل فى صدورهم تجاهنا جعلهم كما التنين الهائج، وأمسينا جميعًا فى قبضة أيديهم كاليمامة بين مخالب الباشق(**).

(*) نصت بنود المعاهدة التى وقع عليها الملك أبو عبد الله مع الملكين الكاثوليكيين على أن يحتكم المسلمون فى قضاياهم إلى الشريعة التى اعتادوا عليها، فيفصل بينهم قضاتهم ورجال عدلهم. انظر الكتاب الأول، الفصل التاسع عشر. (المترجمة).

(**) أحد الطيور الجارحة، يبلغ طوله من المنقار حتى الذيل ثلاثة أعشار المتر. لونه أبيض تشوبه خطوط بنية تميل إلى الاحمرار عند الرقبة والصدر والبطن، أما الريش الخارجى فهو رمادى يميل إلى الزرقة. Real Academia Española, Diccionario de la lengua Española, vigésima primera edición, tomo I, pág. 1030. (المترجمة).

بما أنهم سمحوا بوقوع كل تلك الأحداث، وخصونا بسائر الشرور، فقد عدنا لبحث ومطالعة النبوءات والآراء، علنا نجد فى الكلمات المكتوبة السلوى؛ وقد أخبرنا الأشخاص ذوو الفطنة الذين عكفوا على التنقيب فى الأصول أن الصوم هو سبيلنا للخلاص، وأن مصابنا الجلل وتأخير الفرج سيجعل من غلماننا رجالاً، ولكن كل تلك الأهوال لابد أن تجلب فى أعقابها البشارة؛ ولسوف يتغمدنا الله برحمته. هذا ما كنت أود قوله، ومهما دامت دولة الظلم فمآلها إلى زوال. من أجل ذلك أيها السادة أتوسل إلى جودكم ألا تتجاهلوا ابتهالاتى، فهى جل ما أقوى عليه. اطرحوا عنى أى فرية أو نميمة، أما من قام بصياغة رثاءه في تلك الأبيات، فإنه يرجو الله أن يدخله جنته ومستقر رحمته."

فُهِمَ من تلك الأوراق صحة ما قيل حول عزم الموريسكيين على القيام بالثورة؛ لذا فقد أرسل الماركيز إلى صاحب الجلالة أصل الأوراق مصحوباً بترجمة إلى الإسبانية؛ وبعد أن ظل الماركيز فى بيرخا لعدة أيام، توجه إلى أدرا لتفقد أحوالها، ومن هناك عرج على مدينة ألمريّة، التى مكث بها طيلة شهر ونصف الشهر دون أن ترد إليه أى أوامر جديدة، ومنها عاد أدراجه إلى مدينة غرناطة، بعد أن قام بزيارة كل المواقع الساحلية وتحصينها على أكمل وجه.